... كما تُلامِسُ رؤوسُ اليتامى

"صُوَر" الفقيد محَمد البَرني في جريدة "أنوال"

محمد البَرْني

... كما تُلاَمَسُ رُؤوسُ اليَتامى

الكتاب

كما تلامس رؤوس اليتامى

المؤلف

محمد البرني

التقديم

أحمد الحجامي

أحمد بوزفور

الإخراج والغلاف

عبد الرحمن زكري

الطبع

Omega Graphique أوميكا كرافيك

67، زنقة 35، مجموعة 2

حي السدري، الدار البيضاء

الناشر

مركز محمد بنسعيد آيت إيدر للأبحاث والدراسات

9، إقامة المارشال أمزيان، زنقة بغداد، الدار البيضاء

cermbensaid@gmail.com

رقم الإيداع القانوني: 2015MO3072

الرقم الدولي: 978-9954-9176-4-0

الطبعة الأولى، 2015

تصدير المركز

يضم هذا الكتاب بين دفتيه مجموع النصوص التي كان الفقيد محمد البرني قد دأب على الإطلالة من خلالها على قراء جريدة "أنوال"، عبر عموده الخاص الذي يحمل اسم "صورة"، والذي ما لبث أن فرض لنفسه بسرعة موقعا في تبويب الجريدة له قراؤه ومتابعوه. وقد توالت تلك الإطلالات بشكل منتظم طوال الفترة الممتدة من أكتوبر 1982 حتى نونبر 1989.

وقد تفضل بالتقديم لهذا الكتاب مشكورئين كل من الأخوين العزيزين الأستاذ المحترم أحمد الحجامي، رفيق وزميل الفقيد في أسرة أنوال، وصاحب الفضل الأول في تشجيع الفقيد، المصور، على الانتقال من الصورة الملتقطة إلى الصورة المكتوبة، وفي جمعها وعنايته بها بعد ذلك، والأستاذ المبدع أحمد بوزفور الذي اختار للمجموعة عنواناً شاعريا ومُوحياً هو: "كما تُلامَسُ رؤوسُ اليتامى..."، اقتبسه من أحد نصوص المجموعة.

ومركز محمد بنسعيد آيت إيدر للأبحاث والدراسات، إذ ينشر هذا الكتاب، يفعل ذلك أولا، كمساهمة متواضعة منه في تكريم مزدوج: تكريم ذكرى الفقيد محمد البرني، مصورا وصحفيا ومناضلا وإنسانا، وعبره، تكريما لذكرى جيل كامل، وكذا تكريما لذكرى جريدة "أنوال"، لسان حال "منظمة العمل الديمقراطي الشعبي"، التي مثلت ما مثلت في تاريخ الصحافة المغربية، وكانت مدرسة ومنارة مضيئة في تاريخ الحياة السياسية والثقافية الوطنية المغربية المعاصرة ككل.

ويفعله ثانيا، من باب اهتمامه مرحليا بكل ما يتصل بتاريخ وذاكرة اليسار (وثائق مكتوبة، مذكرات، شهادات، كتابات، إبداعات، قراءات، مجلات، جرائد، صور، تسجيلات سمعية بصرية...) كجزء من اهتمامه الأساسي بتاريخ وذاكرة الحركة الوطنية المغربية ككل، وبالمغرب عموما كمجال، دولة ومجتمعا.

ولا يفوت المركز أن يتقدم في الأخير بالشكر الجزيل لكل من ساهم في مجهود إعداد وإخراج هذا العمل وتقديمه للقراء في أحسن صورة ممكنة.

مركز محمد بنسعيد آيت إيدر للأبحاث والدراسات

تقديم

قصّة "صورة"

◆ أحمد الحجامي

بعد موت البرني بقليل بادرت إلى جمع ما كتبه في ركن «صورة» ووضعه على قرص مدمج سلمته لابنه جواد. تداولت الموضوع بعد ذلك مع فاطمة أرملة الفقيد فأخبرتني أنها بصدد البحث مع بعض الرفاق عن إمكانية طبعها في كتاب وإخراجها إلى حيز الوجود... مرت الشهور والأعوام وجرت مياه كثيرة تحت الجسر... حتى هاتفني السمهاري يخبرني بأن كتاب البرني تحت الطبع بمركز بنسعيد ويطلب مني كتابة شهادة في الموضوع (وطلبات السمهاري أوامر). اغتبطت للأمر متذكرا «الحكمة» الإشهارية: "التأخر في الوصول خير من عدم الوصول"

تعرفت على البرني في صيف 1981 بمطار الرباط سلا. كان يوما لا ينسى؛ يوم عودتي من المنفى الذي دام أكثر من عشر سنوات، صحبة مجموعة من الرفاق العائدين أذكر منهم: مختار قدوري، محمد السمهاري، المرحوم محمد صلاح الدين والأستاذة عائشة زوجة ابراهيم ياسين (بائعة أنوال في باريس)... وكانت مجموعة أولى من المشمولين بعفو 1980 قد عادت الى أرض الوطن في ربيع 1981 ، مكونة من: محمد بنسعيد. رشيد سكيرج، مصطفى مسداد، محمد حبيب طالب، محمد المريني والعربي مفضال.

كان الانفعال في المطار عشيتها سيد الموقف... إجراءات المرور التي بدت وكأنها لا تنتهي... جموع المستقبلين من العائلة والرفاق والمطار في هرج ومرج. وكأنما اجتمعت كل الشروط المواتية للبرني للقيام

بمهمته: تغطية «الحدث» بالصورة لجريدة أنوال. ويبدو أن شرطة المطار بدأوا يتضايقون من أضواء كاميرا هذا المصور الملحاح الذي لم يكتف بأخذ صور للرفاق العائدين بل أخذ يتتبع حركات طفلتي الصغيرة ليلى وهي تحبو في بهو المطار ويغمرها بأضواء كامرته ولا يكاد يعبأ بأوامر البوليس بالتوقف عن التصوير. علمت فيما بعد أن ذلك كان ديدنه في مثل هذه المناسبات والمواقف. تعرفت هنا إذن على البرني "المصور المشاغب" عدت في صيف السنة الموالية بشكل نهائي إلى المغرب لألتحق مباشرة بهيئة تحرير أنوال، بعد أن كنت أراسلها من باريس بمقالات دامية حول الوضع العربي الأكثر دموية كان آخرها عن حصار بيروت بعنوان «العرب خارج التاريخ». ارتبط التحاقي بأنوال بالقفزة النوعية للجريدة على المستوى التقني باقتناء آلة الكترونية بسيطة compospherèوهيكلة قسم تقني مؤمنا بذلك استقلالية الجريدة على مستوى جميع العمليات التقنية باستثناء السحب، واكتملت هذه القفزة أكثر بظهور الماكنتوش سنة 1986. خلقت هذه الوضعية الجديدة دينامية خاصة في أنوال وانقسم الرفاق حيالها قسمين: قسم على رأسه المدير يرعى لهذه المخلوقات الإلكترونية العجيبة حرمة ويعاملها بالتوقير ويلتزم حيالها مبدأ عدم التدخل. وقسم آخر في مقدمتهم البرني، وقد قع تحت تأثير سحرها، لا يفتأ يحوم حولها «بشكل مريب» ثم لا يتورع عن مراودتها عن نفسها أحيانا في غياب المدير طبعا. لنقل إن البرني كان مسكونا بالفضول المعرفي وحب الاستطلاع والمغامرة اللذيذة. كان هذا التجهيز مفخرة الجميع ومفخرة عواد بشكل خاص إذ كان يباهي به زملاءه ناشري الصحف الوطنية ويحثهم على تطليق النظام القديم اقتداء بأنوال وهو ما حصل ولكن بعد سنين. بل إن الأستاذ علي يعتة ظل متشبثا بالتجهيز العتيق إلى آخر رمق.

لم يكن البرني في الأصل كاتبا ولا صحافيا ولم يدع يوما انتماءه إلى إحدى الطائفتين. ثم مَن مِن أعضاء هيئة تحرير جريدة أنوال كان كذلك في ذلك العصر؟ إذا استثنيا محمد نجيب كومينة وطالع السعود

الأطلسي خريجي المعهد العالي للصحافة. علما بأنه لم يكن للصحافة دخل في وضعهما بأنوال.

البرني في الأصل مفتش في المالية ومتطوع في الجريدة بشكل نضالي. مهمته التصوير والاشتراكات والنيابة عن المدير في «الشؤون الإدارية والعامة»، في جوانبها التنفيذية على وجه التحديد، وتوفير الورق والأقلام مع تحبيذ الحصول عليها مجانا من الأصدقاء في البنك العربي إن أمكن بدل شرائها... فضلا عن المهمة الرئيسية طبعا بحكم تخصصه المالي وهي مسك حسابات الجريدة بشكل عام؛ ومسك حساب نجيب كومينة بشكل خاص باتفاق الطرفين وبمباركة المدير؛ لأن كومينة، كما زعموا، جيبه مثقوب. وكأن الآخرين كانت لهم جيوب تحتفظ بتلك الـ2000 درهم حتى آخر الشهر أو نصفه أو ربعه..!! لكن الفرق أن هؤلاء كانت لهم زوجات يمسكن حساباتهم ما استطعن إلى ذلك سبيلا.

كانت تلك، وغيرها كثير، هي مهام البرني في أنوال ما عدا الكتابة والتحرير إذا استثنيا مساعدة برادة أحيانا في فرز بريد القراء. كل ذلك كان يقوم به البرني خارج أوقات الدوام لأن دوامه طبعا كان بوزارة المالية. ولأن الدوام العادي للجريدة على العموم كان بعد أن ينتهي الناس من أعمالهم؛ فالمدير أستاذ بكلية الحقوق والوضع شبيه بذلك بالنسبة لباقي المتطوعين... نحن نتحدث هنا عن شروط إنجاز جريدة مناضلة كانت تصدر في...القرن الماضي.!.

شيئا فشيئا بدأ البرني يقترب من «بيت النار»، يدمن على قراءة كل ما يكتب في الجريدة بحس نقدي، يشارك المحررين معاناتهم مع الكتابة ويعايش مخاضات المعسرين منهم، وبـ«المخالطة والمعاشرة والاطلاع على الأحوال».. تبوأ البرني موقعه في هيئة التحرير مع محمد حبيب طالب والعربي مفضال وطالع السعود الأطلسي ومحمد برادة وحسن السوسي ومحمد نجيب كومينة وجليل طليمات وأحمد الحجامي ورشيد جبوج ومحمد بلوط ومن التحق بعد ذلك بأنوال أو بأنوال الثقافي وسواهم من الجنود المجهولين والمعلومين من التقنيين والمصححين ومن المراسلين والكتاب... واحتلت «صورة» مكانها بين أعمدة الجريدة

وأركانها الثابتة إلى جانب «مباشرة» (الأطلسي) و«قضايا الناس» (برادة) و"مسرح" مسكين و"موسيقى" الرايسي و"تشكيل" القاسمي و"سينما" الصايل و"اقتصاد" العوفي و"شطرنج" العامري و«مسيمرات» بزيز...

هكذا سرق برومثيوس قبس النار من الهيكل، وطفق يوزع الدفء في ليالي الزمهرير ويبعث الروح في الشخوص والأشياء من حوله. وضع آلة التصوير جانبا. من جهة، لأن استعمالها نادر في الجريدة ومن جهة ثانية، لأن آخر انشغالات المدير، إزاء كل «الأولويات»، هي تلبية مطالب «مصورنا» بتطوير «قسم التصوير.«

كتب البرني محاولة وثانية وثالثة... أبديت في كل مرة ما يلزم من الملاحظات، وبشكل خاص، ما يستحق من التشجيع. عرض المحاولة على أكثر من واحد لأن الإجماع ضروري في مثل هذه النازلة. اقترحت عليه اسم «صورة». فجاءت ـ والحق يقال ـ اسما على مسمى. بدأ يأتي بـ«صوره» بادئ الأمر مكتوبة على الورق. ثم ـ بدعوى رداءة خطه ـ بدأ «يتجرأ» خطوة خطوة على الماكنتوش عندما يكون هذا متاحا ويكون المدير غائبا، يشرع في رقن «صورته» سطرا سطرا؛ ويبدأ ويعيد شأن ممثلي المسرح عندما يقومون بالتداريب استعدادا للعرض القادم.

نماذج «صوره» يلتقطها من الحياة حوله؛ من الظواهر والنماذج البشرية التي يمور بها المجتمع؛ في الشارع، في الإدارة، في المقهى... وفي الجريدة نفسها؛ لم لا؟! حالات المدير عواد وهو يزعق ويرغي ويزبد بسبب الاستهلاك المفرط لأقلام «بيك»، أو تنفرج أساريره لأن الجريدة صدرت في الوقت، أو لأنه لم يتلق أي استدعاء أو مكالمة ساخنة من الخلطي رئيس البوليس السياسي مما يعني أن أي واحد من المحررين لم يتخط الخطوط الحمراء هذه المرة... كل ذلك يجد فيه البرني مادة تصلح للكتابة والكاريكاتير والتصوير...

أدوات البرني بسيطة، لغته تلقائية لا تكاد تختلف عن الكلام العادي للناس لكنه يضعك في قلب المأساة (وإن على شكل ملهاة) التي يريد تصويرها. وذلك هو العمق في صور البرني. وقد تأتّى له ذلك لأنه

كان شديد الالتصاق بحياة الناس وهو ابن يعقوب المنصور الحي الشعبي بامتياز النابض بالحياة على اختلاف ألوانها وأنماطها، والبرني كان يجيد الإنصات لنبض الحياة عموما وحياة البؤساء من الناس بوجه خاص.

والعائلة في كل هذا؟ كان البرني رب عائلة من طراز ينتمي الآن إلى أزمنة أخرى. كان يعيش تحت سقف واحد مع أبويه وزوجته وأبنائه الأربعة في بيت لم يكن قد اكتمل بناؤه بعد. كان بارا بوالديه ويكون منشغل البال من ناحيتهما عندما يتأخر في الجريدة ليلا لأنه يعلم أنهما في الانتظار ولن يرف لهما جفن قبل أن يسمعا صرير المفتاح في قفل الباب في بهيم الليل. كانت الزوجة أكثر «تفهما»؛ إذ تعرف أين يكون ومع من ولماذا؟ ... منشغل البال دائما بالأولاد وحياتهم المدرسية: جواد وإرادة التحرر من القيود كمن شب عن الطوق قبل الأوان، ليلى ومشكل السمع. وفرحه الطفولي الذي سرى في دواليب الجريدة يوم التحقت بشرى بكلية الحقوق...

تلبية متطلبات الجميع ومستلزمات الحياة لم يكن سهلا. وعندما ترهق المشاكل المادية كاهله كان يلجأ إلى حلين؛ أو بالأحرى إلى حيلتين: حساب متجدد مع «إكدوم» كأيها موظف يحترم نفسه، وإلقاء المشاكل في البحر؛ بحر الهموم الكبرى للمغاربة... لتتحول يوما إلى مادة لهذه «الصور» التي بين يدي القراء.

رحل محمد برني سنة 2000 بعد مرض لم يمهله طويلا ليشكل مع الذين غيبهم الموت وهم في أوج العطاء، قافلة تمتد وتطول؛ من الذين صنعوا أنوال أو صنعتهم، ممن اشتغلوا فيها من مواقع مختلفة وبأقساط متفاوتة: عبد السلام المودن، أحمد بنعزوز، الحسين كوار، محمد هجري، مصطفى سفير، محمد مسكين، محمد الرايسي، محمد القاسمي، رشيد طليمات، عبد السلام الحيمر، أحمد أمغار... ممن كان لهم وهج وتركوا آثارا «تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد.«

ترك رحيل البرني المفاجئ غصة في الصدر ولوعة لدى كل القريبين منه ولدى الذين عرفوه في الجريدة، في المنظمة، في الشبيبة، في اتحاد العمل النسائي، في الوزارة، في النادي، في حي يعقوب المنصور...

وتجرعت أسرته الصغيرة بشكل خاص كأس الغياب بألم وحرقة. وسرعان ما شمرت أرملته فاطمة عن ساعد الجد إذ لم يكن لها خيار آخر. خرجت إلى ميدان العمل، وهي ربة بيت بامتياز، مربية في مدرسة حرة ومربية قبل ذلك وبعده لأبنائها الأربعة حتى ضبطت أمورهم الواحد بعد الآخر، فتحية إليها بهذه المناسبة وإلى أبنائهما جواد وبشرى وليلى وعماد.

التَّنقّلُ

داخل العاصمة، الموكول إلى وكالة "مستقلة" عن كل تخطيط عقلاني ومراقبة جدية يزداد استفحالا يوما بعد يوم :فلا سيارات كافية، ولا احترام أدنى للوقت، ولا عناية بالشروط الصحية والأمنية...

فرغم توسيع الشبكة لتغطي أحياء العدوتين، فإن توزيع الحافلات لم يتم بشكل يتناسب مع كثافة الأحياء وبُعدها عن المركز، وهكذا يستحيل استعمال الخطوط الرابطة بين المركز وأحياء المسيرة وتابريكت وحي السلام والتقدم ويعقوب المنصور واليوسفية ...في أوقات الالتحاق بالعمل .لأن هذا الاستعمال يستدعي من المسافر صفات يستحيل توفرها في شخص واحد :الصبر الذي لا ينفذ، الصحة التي لا تخون، المراوغة والمجاملة، القدرة على التكيف بسرعة الكترونية...

فلكي تحترم نسبيا أوقات عملك، عليك مغادرة الفراش ساعات قبل موعد العمل، والإسراع إلى أقرب محطة كي تأخذ نصيبك من الانتظار مدة قد تتحول إلى إقامة، لترقب الحافلة التي قد تأتي وقد لا تأتي، وإذا مرت فقد تتوقف وقد لا يكون مرورها سوى استعراض رمزي لآليات الوكالة التي تجاوز معظمها سن اليأس بكثير .تمر أمامك وهي تتهادى، يتدلى من بابها الخلفي خلق كثير يشد بعضهم بعضا كالبنيان الآيل إلى السقوط، تتبعها بعينيك مدة إلى أن تغيب ثم تحول بصرك 180درجة لتستطلع قدوم حافلة أخرى.

أما إذا توقفتْ توقفا غير تقني لا قدر الله، فما عليك إلا أن تأخذ نفسا طويلا يكفيك طوال مسافة السفر (والسفر قطعة من جهنم)، وترخي عضلاتك ليدفعك المد الشعبي إلى أبعد نقطة داخل الحافلة...

وهناك وأنت في قلب الحافلة، عليك بالتكيف مع وسطك الاجتماعي الجديد، والتصرف بشكل يضمن وصولك بدون كسور أو خسائر مادية

و"أدبية ". فعليك بضبط ما تبقى من الأعصاب، وكن- رعاك الله- لطيفا متسامحا ...إذا رُفِست رجلك اليمنى فقَدّم اليسرى بكل أريحية ... وإذا دُلِكتَ كالعجين فلا تصرخ ...فالكل سواء .وعلى ذكر المساواة، اعلم أن الحافلة هي المكان الذي تتساوى فيه المرأة والرجل، ويتساوى الجميع بكائنات أخرى يتم نقلها في نفس الشروط إلى...المجزرة.

من باب الحيطة والحذر، لا تحمل شيئا، فالجيوب- ومناطق أخرى من الجسم- مستباحة، والأيدي التي كان من المفروض أن تحرسها، مشدودة إلى أعلى تبحث عن القضبان لأن "الفرامل قوية".

بعد محنة الصعود، وإيجاد مكان لقدم واحدة، عليك بالبحث عن قدمك الأخرى استعدادا للنزول ومواجهة مراقبين في سن التقاعد يفوقون عدد الحافلات بكثير، سيطالبونك بتذكرة في حجم "الميكروفيلم" عليك بالتنجيم للكشف عن أي جيب احتواها.

يتكرر هذا الأمر مرات أربع في اليوم .يستغرق ساعات أربع على الأقل، تقطع فيها مسافة لا تقل عن العشرين كيلومترا إلا قليلا، وذلك عملا بشعار "السرعة تقتل".

فماذا يفعل الاستهتار بالوقت، والتفرج على ضياعه هباء منثورا حول عمود أصفر يتجمع حوله خلق كثير، يتبادلون ما جد من أخبار الأسعار ومسلسلات التلفزيون في انتظار الصندوق الآتي من المجهول؟

يبقى السؤال معلقا، وسنضيف إليه أسئلة أخرى تتعلق بسيارات الأجرة، متى توفرت لنا أجرة الجولة.

14 أكتوبر 1982

في الثلث الأخير من شهر سبتمبر فتحت المدارس أبوابها لاستقبال ما يقل عن نصف الأطفال البالغين سن الدراسة، بينما أعيد ما يزيد عن النصف الباقي إلى ذويهم وأولياء أمورهم ليتم توزيعهم على المدارس الحرة، والشوارع العريضة التي تستوعب جميع الأسلاك من الكتاتيب إلى ما بعد الخدمة المدنية.

عندما يجد الطفل، وبمشقة الأنفس، مقعدا دراسيا، يكون قد انخرط في مسيرة قد تطول، وقد تتعثر لتقف في النهاية قبل الأوان وبحصيلة تكون غير سارة في الغالب.

فبعد يوم يقضيه الطفل في القسم يستأنس فيه بالمقاعد، والأقران، ومعلمين أنهكهم إحصاء "كم نحن" يعود للبيت ومعه لائحة على قد طوله بما يلزم لفتح مركب للأدوات والكتب المدرسية، يتسلمها الأب بيد مرتعشة كأنها قطعة من نار، يتفحصها لحظة، ثم يضعها جانبا وهو يردد :"الصباح رباح!!"

وفي المكتبة الوراقة، وبعد انتظار طويل يأتي دوره في إفراغ محتوياتها من الرفوف :أقلام مختلفة الأشكال والألوان تكفي لوضع تصميم مديري للعاصمة، دفاتر وكتب تملأ كل فراغات المحفظة مهما كبر حجمها، ناهيك عن القطع الصغيرة التي تلزمها هي الأخرى، محفظة صغيرة موازية، كالمنجرة للوْي أعناق الأقلام، وممسحة لإخفاء آثارها ... الطباشير، السبورة، وأخيرا المسطرة ذات الاستعمالات المتعددة...

دهشة تعم الوجهين، وبينما تتحول بسرعة إلى فرحة بريئة في وجه الطفل، فهي تأخذ شكل القلق والضيق على الوجه المتجعد قبل الأوان للأب، تبدأ بعدها يداه رحلة طويلة في ثنايا الجيوب تطارد الدرهم من

جميع الفئات ورقة كانت أو معدنية يرجح بها غول الأسعار الذي ركب رأسه فما عاد هناك من قادر على ردعه.

فاتورة محررة بخط رديء، يسددها الأب بينما الابن يستعجل الاستحواذ على الغنيمة بعيدا عن لهفة الأطفال الآخرين الذين ينتظرون دورهم لاستنزاف جيوب آبائهم المستباحة...

وهما في طريق العودة، يوصيه خيرا بالأدوات والكتب، قبل تذكيره بالآفات القاتلة للتكاسل والإهمال، ونكبات الدهر المدرسي التي تأتي بدون إنذار .ثم يلتفت يمينا وشمالا مخافة مصادفة البقال، والسمسار، وكل الملاكين الكبار الذين سوف ينتظرونه طويلا ولا شك قبل القبض عليه لتصفية جزء من حساباتهم معه.

هذه صورة ملونة شيئا ما لتكلفة طفل واحد، تطأ قدماه المدرسة للمرة الأولى، ليجرب حظه مع الحروف الأبجدية...

وبعد ذلك، فَلِغلاظ القلب غيري تصورُ ما يكلّفه أطفال لا يسَع عددَهم كناشُ الحالة المدنية.

28 أكتوبر 1982

عِنْدما تُفتحُ الأبواب وتغلق محدثة رجة في أنحاء البناية، فليس ذلك لأننا في فصل الشتاء، فهذه حالها طوال الفصول الأربعة لا سيما لدى وصول المدير إلى مقر الجريدة .أول قسم يمتص قوة اندفاعه هو قسم التحرير ...يفتح باب القاعة بعنف مهذب، يتسمّر في وسطها مشدوها ...يستوعبها بنظرة نصف دائرية يبدأها شمالا بإلقاء نظرة متقززة على الطاولة الكبيرة المستطيلة الشكل التي تكاسلت فوقها أكوام من الجرائد والمجلات وأوراق مخطوطة لا شك أنها مشاريع مقالات تنتظر التصفيف ...وبجانبها كؤوس كانت بها قهوة، ومنفضات تسبح فيها أعقاب السجائر بالعشرات ...الكل في تعايش مؤقت ينذر بهبوب عاصفة مديرية لا ريب فيها .بحركة عصبية ينتزع بصره من المائدة ويحوله في اتجاه اليمين ليصطدم بكراسي فقدت أماكنها الأصلية وبدت كأنها من مخلفات معركة خسرها أصحابها...

في الجانب الأيمن من القاعة اصطفت مكاتب التحرير، وراءها رفاق في أوضاع مختلفة كأنهم لجنة تحكيم طالت جلساتها، وبحركة لاإرادية تتساقط الأقلام من الأيدي وتتنفس الأوراق الصعداء وتمتد الأصابع المتعبة إلى علب السجائر تفرغها...بعدها تبدأ محاكمة العدد للمرة الألف ...مواده ومصادرها، أعمدته، صوره وعناوينه...محاكمة هادئة في البداية، ثم تتصاعد النبرات كلما كانت للموضوع حساسية وما أكثر ذلك...وتهدأ العاصفة بالتدريج، ويخيم سكون لا يقطعه سوى صوت الآلة الكاتبة التي تنبعث منها دقات غير رتيبة، وسيارات الإسعاف

الحديثة المتعددة الألوان والأضواء والتي تحج إلى مركز الشرطة المقابل كلما دعاها الأمر لذلك...

وهو في طريقه إلى تخوم المقر، يعرج على قسم التصوير والأرشيف والمالية ومهام أخرى يصعب حصرها، يكتم غيظه ويكتفي بإطلالة قصيرة يتأمل على إثرها عشرات الصور التي لم ترتب بعد، تتقاسم الحيز مع صينية من الأليمنيوم الخالص وكؤوس مختلفة الأحجام وإبريق متعدد الاستعمالات ورفاق استهلكتهم الأقسام الأخرى فلاذوا بهذا القسم الرحب يتبادلون الرأي والتعليق وكأس شاي غير ممتاز في الغالب في جو مفعم بسحب كثيفة من دخان السجائر يستحيل معها تمييز شكل محدثك.

وبخطوتين لا ثالثة لهما، يصل إلى قسم التصفيف، حيث يطول مقامه، فهناك تأخذ المقالات شكلها النهائي على يد رفيقنا المصفف الذي يجلس وراء آلته ساعات طوال يخاطبها بأصابعه في مرونة تحسد عليها ... يغمره المدير بابتسامة خاصة، بعدها يحاصره بأسئلة تقنية تجوب العدد من صفحته الأولى إلى الأخيرة، تتوقف من حين لآخر كلما صادفت فراغا تنقصه مادة، أو مادة يجب تحجيمها لتساير الحيز...

يترك قسم التصفيف ومازالت برأسه أسئلة كثيرة تنقصها الإجابة المقنعة، يدخل بها قسم الاشتراكات، يجلس وراء الآلة الكاتبة، يدفعها جانبا ويبدأ في تفحص الرسائل الموجهة إلى المشتركين، يبدي بعض الملاحظات ويعيد البطاقات التي زاغت عن صناديقها، ثم يتوجه إلى مكتبه، يلقي نظرة على البريد ويشعل سيجارة أخذها ولا شك من إحدى العلب السائبة في المقر...بعدها يطلب المحاسب للقيام بجولة غير مأمونة عبر الأرقام.

عندما تفرغ الأقلام والرؤوس وتتعب الأوراق والآلات ...يتجمع الجميع في مكتب المدير وفي استرخاء نادر يشاركونه قهقهاته التي تسمع من الشارع، تتخللها من حين لآخر نكت، وإن كان أغلبها مستهلكا، فهي مليحة والحق يقال .

18نونبر 1982

لَمَّا وصل الطابق الثالث، أجال بصره في الممر الخالي من الحياة إلا من مقاعد خشبية منثورة هنا وهناك وبلا انتظام، اختار أقربها إليه، ولما استوت قعدته، ودقات قلبه، وانتظمت أنفاسه فوجئ بأحد أعوان المصلحة ينبهه إلى أن مكتب الحوالات يوجد بالطابق الأول، وببطء شديد، غادر الكرسي نحو السلم وهو يلوم نفسه مع كل خطوة يخطوها نحو الأسفل.

وفي الطابق الأول، أخذ مكانه بجوار من سبقوه، وأخذ يتسلل إلى أحاديثهم بحركات من يده ورأسه في بادئ الأمر، ثم بكلمة تتطور إلى جمل لا حصر لها كلما تيقن من اكتساب اهتمام الذين بجواره .وأخيرا ضم مشكلته إلى مشاكلهم، وامتلأ الممر زوارا، وأعقاب سجائر تحت الأقدام، وأعوان الخدمة والمصلحة المبثوثون في أرجاء الممر على شكل حلقات استغرقتها أحاديث "نميمية" ممتعة.

وطال الانتظار كثيرا، أمضاه في نسج علاقات حميمة مع الذي بجواره إلى أن توطدت العلاقة بينهما فتواعدا على تبادل الزيارة العائلية حالما تصرف لهم الحوالات...

ولما جاء دوره، وانفتح له الباب الزجاجي، حيا المكتب ومن فيه، ثم خطا خطوات خجولة وحذرة كأنه لا يثق في أرضية المكتب، واحتار لمن من الموظفيْن ينحني انحناءة أكثر احتراما وتقديرا، ولما لم يبال به أحد تراجع قليلا إلى الوراء، وأخذ يترقب أدنى إشارة من أحدهما.

وأخيرا أشير إليه، فقفز كأن أحدا دفعه من الخلف، وتوقف جامدا على حدود مكتب كبير تغطيه قطعة من زجاج سميك تبدو تحتها وثائق كثيرة بجانب صور تذكارية، وبطاقات بريدية .نظر إليه الموظف طويلا ثم سأله

بغلظة عن اسمه ...تلعثم قليلا ثم، لما انحلت عقدة لسانه تدريجيا، أخرج ما في جوفه دفعة واحدة مخافة أن يقاطعه الموظف المنهمك في تقليب رزمة الأوراق التي أحضرها معه.

قال إنه متزوج، وله أولاد، لم يفلحوا جميعهم دراسيا ولا مهنيا، وأنهم يعتمدون عليه وحده وعلى حوالته التي كثيرا ما تغيب، وأنه متعب، يوجعه أكثر من مكان في جسمه، وأن العبء ثقيل، والحياة قاسية ولا ترحم، وأن الحوالة الأخيرة انتظرها طويلا، فتراكمت الديون حتى أصبح لا يجد من يستدين منه، بل وحتى من يصدقه أنه في انتظار حوالة .كان بوده أن يحكي مزيدا من التفاصيل ... كيف قرر السفر، وكم كلفه البحث عن هذه البناية، وكيف صعد إلى الطابق الثالث الخ ...لولا صرامة الموظف الذي نهره أكثر من مرة، وفي الأخير تركه وشأنه يروي ما شاء، ويقسم بمن شاء إلى أن أثار فضول الموظف الآخر الذي استغرقته مجلة مصورة مضى على صدورها أكثر من سنة ...ففحصه بنظرة خاطفة ثم عاد إلى اهتماماته.

وبعد التحقق من الهوية، صورة واسما وعنوانا، وبعد استشارة عدد من الدفاتر والسجلات، والرجوع إلى ملفات علاها الغبار، أعاد الموظف قراءة بطاقة التعريف التي أمامه وقلبها في جميع الاتجاهات وهو يتفحص الرجل صعودا وهبوطا بتدقيق شديد، مستعرضا تفاصيل وجهه كل ميليمتر على حدة، ومتوقفا بين الحين والآخر لمقارنة مشاهداته بالصورة التي في بطاقة التعريف، وفجأة انتصب واقفا كأن المقعد ارتفعت حرارته فجأة ...وخاطب زميله بفرنسية لا بأس بها:

-حسب وثائقنا، فهذا الشخص قد مات منذ شهور.

ثم حمل ما استطاع من أوراق وملفات وغادر المكتب.

لم يطل انتظاره طويلا هذه المرة فقد جاءه عون مصلحة آخر غير الذي أدخله إلى هذا المكتب، وأخذه بلطف إلى مكتب آخر في نهاية الممر

وهو لا يشبع من النظر إليه وترديد أشياء غير مفهومة، وبعد طرق خفيف ومهذب على الباب، أفسح له الطريق وتراجع قليلا ثم أقفل الباب من ورائه.

وبعد لحظات غادر المكتب الكبير لتمتصه كل مكاتب البناية لحظات ثم تلفظه إلى أن وصل إلى الباب الخارجي وبيده قائمة طويلة بالأوراق التي يجب إحضارها لتسوية وضعيته مستقبلا وفي مقدمتها: شهادة الحياة!!

2 دجنبر 1982

العزيز،

وَلَدي عاد من أسبوع إلى القرية، بعضٌ من أهلنا كانوا في زيارة قصيرة لذويهم بالمدينة، ومما أحضروه معهم، رواية عنك تحكي تفاصيل عما فعلته بنفسك، وقد نزلت عليّ كالصاعقة، وحولتني في لحظة إلى قزم يتندر به كل من في الدوار صغارا وكبارا، جهرا وخفية. فرغم اختلافهم في التعرف عليك في بادئ الأمر إلا أنهم استطاعوا تمييزك عن باقي العشرات من أمثالك ذوي الصناديق الخشبية الذين يتقاطعون أمام المقاهي، وعلى جنبات الشارع الرئيسي، وذلك بالجرح الممتد على جبينك كإحدى سواقينا الجافة، وفمك العريض ذي الشفتين المتنافرتين دوما وصوتك الفج الذي لم تستطع بعد تهذيبه رغم مقامك الطويل بالمدينة وتسريحه شعرك المثيرة للضحك.

قالوا إنك تجوب كل شوارع المدينة، وروافدها ومقاهيها، تتسلل، بين روادها، يسبقك صندوق خشبي، مرصع بمسامير نحاسية، فتختفي الأقدام لمطلعك تحت الطاولات، وتتحرك الرؤوس يمنة ويسرة، فتتابع رحلتك إلى أن تجد زبونا تنقصه أشياء كثيرة غير تلميع حذائيه، يمد إليك بوقاحة حذائين لا شكل ولا لون لهما، تنبعث منهما رائحة الجوارب التي التحمت بقدميه والتي تنفت رائحة ولا شك منفرة فتركع أمامه ...يالْلمهانة ...تسوي الصندوق تحت رجله، بعد أن تفرغه من محتوياته من العلب والفرشات وأشياء أخرى، ثم تأخذ في تدليك وتلميع الجلد (إن كان حقا جلدا)بخفة ورشاقة لم أعهدهما فيك من قبل، وبنقرة على الصندوق يجر الزبون قدميه في كبرياء وغرور، ويمد إليك

خفية قطعا من النقود الصفراء كأنه يتصدق عليك، فترد عليه بابتسامة لا مبرر لها، على إثرها تغادر المقهى في اتجاه أخرى، وعيناك لا تفارق الأرض، تعترض المارة بكلمة مقتضبة جدا لا أستطيع النطق بها مصحوبة بنقر مزعج على الصندوق.

وقالوا إن هيأتك مزرية، ثيابك مهلهلة، بها رقع على الركبتين ولا جيوب لها، وتنتعل شيئا من الذي لا يُمسح ولا يُلمّع، وقالوا إنك مهمش، فلم يروك تحادث أو تجالس أناسا ذوي وزن في المدينة، وأنه من المستحيل أن يكون لك بيت، فكيف بزوجة وحامل كما ادعيت في آخر رسائل منك.

ليس سهلا، التشكيك فيما شاهدوه جماعة، ولهذا انكمشت في حزني ومرارتي، أجتر خيبة أملي فيك، وأراجع، والندم يكاد يقتلني، ساعة وافقتُك على الهجرة وأنت تغمرني بوعود صدقتها بسذاجة.

أفلم تعدني بأنك ستبحث عن عمل شريف، تكسب من ورائه مالا حلالا تساعدني به على رفع مظالم إنسان المدينة، والطبيعة، واسترجاع قطعة الأرض التي بعتها قهرا رخيصة، من أجلك ومن أجل إخوتك لأزرعها من جديد قمحا وشعيرا، وأقيم لك لدى عودتك في الصيف عرسا تتناقل أصداءه كل المداشر؟

جَلستُ بجواره، طلب قهوة، وطلبت شايا للتنويع .وفي انتظار إحضار طلباتنا، أخرج من جيبه الداخلي رقمه الاستدلالي، وسلمه الإداري بدرجاته الثمانية، وأوسع لهما فوق الطاولة، ثم أخذ يضرب الأرقام في بعضها في محاولة لكشف مبلغ الزيادة الموعود بها ابتداء من نهاية يناير.

حياته كلها أرقام وتسلسل إداري .يعرف أكثر من رئيس قسم ومصلحة .مر أمامه العشرات من الأعوان .تغيرت البنايات وزادت طبقاتها حتى صارت أجمل، واجهاتها من الزجاج وذات مصاعد كهربائية ...أما المطبوعات فقد تعربت إلى الربع .ولما انتبه إلى نفسه وجدها هي الأخرى لم تنج من آثار الأقدمية ورياح التغيير.

فقد جاء الإدارة يوما، شابا يافعا، سعيدا بمنصبه، وأجلسوه وراء مكتب ثم نسوه .يستعرض أحلاما ويؤسس طموحات، وذات يوم تحقق الذي لا مفر منه، إذ تزوج وأصبح أكثر جدية، دائم الحضور في المكتب والممرات ولا يغيب إلا في حالات المرض القصوى.

استفاد من كل الزيادات التي لا مست الأجور، ومازالت تغلبه تلك التي تلهب الأسعار .يدخل الدكان مساوما ويتركه متأوها .يحتفي به الأطفال لحظة ثم يتركونه إلى أمهم تغدق عليهم من الوعود أعذبها في انتظار تحريك تعويضاتهم أو ترقية الأب داخليا.

وعندما استنفذ كل الأرقام، في معادلات كانت الغلبة فيها للاقتطاعات ...مال على كأسي يريد إلحاقها بالتي أفرغها منذ حين لولا تشبثي بها، ولما يئس انتفض غاضبا وقال:

-هذه مهزلة وليست زيادة ! 30 دجنبر 1982

وَلمَّا لم يعد يقوى على تحريك علبة الكبريت ...أحالوه على التقاعد لقضاء بقية العمر مخبولا يتقاذفه الأطفال أيام العطل.

قبلها كان بقوة الحصان...هكذا كان يصف نفسه في الأوقات النادرة التي يصفو فيها عقله .إلا أنهم نخروه ...اعتصروا عضلاته إلى الألياف...قوسوا ظهره ...لوثوا رئتيه ...عبثوا بذاكرته وحواسه ... اقتطعوا من جسمه أجزاء كعادتهم مع أجرته وعطله ...ولما لم يعد يقوى على تحريك علبة الكبريت، استبدلوه بحصان جيد.

هو دائم الحضور في الدرب...تستنشقه مع نسيم الصباح ...يودعك بحركات من يديه ورأسه .وفي المساء يكون آخر من تغادر .يداعب الأطفال ويعاكسونه ...يتحاشاه الكبار وبنات المدارس ...وفي حالات كثيرة يتيه ...يتيه ...فيتجند شباب الحي لانتشاله من النسيان .وعندما يعاود حضوره، ينشغلون عنه بأمور أكثر جدية.

ومع نهاية كل ثلاثة أشهر أو يزيد، تصطحبه زوجته وابنه وأحفاده إلى مكتب البريد ...يساعدونه على استلام معاش لا يكفي لتدجين دجاجة ...بعدها ينسلخون عنه في انتظار مطلع آخر لساعي البريد ... بعد ثلاثة أشهر أو يزيد!...

2 يناير 1983

ولأنَّهم

أوصدوا كل الأبواب في وجهها، ارتدت سروالا من الذي لا ينظف ولا يكوى، يلتصق بفخذيها حتى لتخاله جزءا منها، ووضعت قناعا شفافا من المساحيق والأصباغ على وجنتيها تخفي به بقايا البراءة في عينيها، وأمام المرآة أتمت توضيب أنوثتها ...شعرها ...شفتيها ...حواشي أظافرها ...ضحكتها ... ثم ضمت إلى صدرها على ضفته اليسرى دفترين أو ثلاثة هي كل ما تبقى لديها من عهد التلمذة المغدور.

وفي الشارع الطويل مشت ...ولمشيتها تموجات ودلال ...ولكعبها العالي وقع تردد صداه منبهات السيارات وصفير يجهل مصدره ...تقول صباح الخير وشكرا، ونادرا عفوا، بالفرنسية، ووداعا بالإنجليزية ذات اللكنة اليانكية، وتثور بالدارجة الأصلية.

وعلى مشارف المدرسة، عانقت زميلات الأمس، سألتهن عن حالة المقرر، عن الأستاذ الذي لا يبتسم ولا يغيب، وعن المراهقين المداومين أمام البوابة الرئيسية والشوارع المجاورة ...وسألت وتساءلن إلى أن انتعش الماضي ودبت في سنواته الحياة ...ولحظتها ودت لو أعيد ترتيب الحظوظ من جديد وتداخل اليوم بالأمس، و .و .ومْضةُ، وخَبَت، ومَضت ومضيْن كل في طريقه...

وفي المساء والسهرة والظلام يعم المدينة دون الضواحي تتخاطفها أيادي عجفاء أحرق لهيب الشمس جلدتها، تسرح شعرها وتقتلع أزرارها إلى أن صرخت فتمادى الشرق نشوة من أنين الغرب الشقيق وفاضت الآبار حليبا أسود في لون الدم المتجلط.

في مكان ما ...في مقهى ما ...في زاوية لا يصلها الضوء، ولا الجارسون، تحلقوا لاستئناف الحديث الجديد القديم ... حديث يلامس رؤوس المواضيع كما تلامس رؤوس اليتامى ...حديث يشد الرحال إلى أبعد نقطة يطالها خيالهم المستنفر كلما ضاقت بهم حدود المكان ...حديث بلا ضفاف ...لا يسمعون ... وإنما يمررون في "سرية تامة" لفافة أعادوا تركيبها من جديد :نزعوا مصفاتها، حشوها بما ينسف العقل والوجدان ...ثم أداروها بينهم ... تمتصها الشفاه بالتناوب وبالقسطاس إلى أن تقزمت ولم تعد للأظافر سلطة على الإمساك بها...

وعندما يغرق ذلكم الضباب السحري تلك الخلايا الهرمة في تلك العقول المغيبة، بصور قزحية اللون وآفاق لانهائية المكان والزمان، تتفتح أسارير ...تنسدل جفون ...تتساقط الحروف من الكلمات ... وينزوي اللسان في إحدى تجويفات الفم ...بينما الأنا تنطلق بعيدة عن كوكبنا ...عن تقويمنا وهمومنا ...تعانق ذاتها في حفل هستيري مأساوي ...و ال "نحن" تضرب كفا بكف وتتبرأ مما جناه فشلها هي، انهزامها هي، جشعها هي ...وبعبارة أشد وضوحا :تخلفها الذي لا يطاق.

20 يناير 1983

الطاكسي

في ما مضى كان استعمال الطاكسي بدعة لا يأتيها إلا مبذر تستهويه المظاهر، ومع اتساع العمران ووفرة النسل لدرجة يتدلى من الحافلات "السريعة" والمتكاسلة، أصبح من الضروري بمكان استعمال الطاكسي ولو على حساب الكثير مما يقض المضاجع.

عبثا تستطلع الأفق بحثا عن سيارة زرقاء اللون، زئبقية الحركة، ذات كوفية صفراء .فهي تختفي عن الأنظار وبالضبط ساعة احتياجك لها، فإن تواجدت في المركز تناثرت وعلى غير هدى في شعاب المدينة وإن انتظرتها في الضواحي تجمعت وكأنها على موعد في وسطها.

عندما تلمحها وتشير عليها، فقد لا يهتم السائق لتلويحك ورقصك على الإسفلت، إذ يكتفي بإشارة متكاسلة من يده اليمنى تفهمك أن محنتك متعددة الفصول، أما إذا توقف وأطل عليك من الباب المقابل فاعلم أن اتجاهك لا يرضيه أو أن العدد مخيف، ثلاثة أو أكثر وفي كل الحالات فلا تحاول منعه من التسكع في أرجاء المدينة بحثا عن زبناء فرادى لم يسبق لهم التعارف من قبل.

وإذا حدث واستوليت على مقعد، فاستعد لرحلة سياحية إجبارية وحلزونية تعد خلالها الأضواء الحمراء وعلامات قف) سابقا ستوب (أو متابعة دقات العداد المستعجلة في استنفاذ مؤونته من الأرقام ...هذا إذا لم تكن مستعدا نفسيا لسماع شكاوى السائق الذي قهره جشع المالك، وغلاء البنزين وقطع غيار محركات المازوت، وقلة المدخول والكراء و و و ... وترد عليه أنت بدورك بطرح قائمة من المطالب التي لم يبت فيها بعد، وهكذا يتحول داخل السيارة إلى تجمع نقابي متجول يناقش قضايا السواق والزبناء في انتظار حلها .

10 فبراير1983

في هذه الليالي الممطرات القارسات، خلت منهم الشوارع وازدحمت الغرف حول كانون تهدمت بعض جوانبه، تمددوا والتحفوا بطانيات باهتة الألوان بعدما نوموا صغارهم قسرا . أجلوا مناوشات المساء إلى حين، ركنوا صينية الشاي جانبا ثم تواصلوا بالصمت وندرة الحركة مباشرة بعد توديعهم لنشرة الاضطرابات الجوية بالتهليل والتكبير .وفي لحظة، تصلبت الأبدان، فغرت الأفواه، والتصقت العيون بالشاشة الصغيرة تبث من آمن زاوية بالغرفة الحلقة ...بعد ... من مسلسل يهضم الوقت يلخبط الذوق ويبذر الفتنة بين الآباء والبنات.

السهرة من تدبير مسلسل عربي طويل، منتج خليجيا وهو من بطولة أحدث أجهزة التلفون المبعثرة في كل شبر من الأستوديو، لا تتعطل ولا تخطئ فقط ترن وكأنها موصولة بمركز هاتفي خاص طوال مدة التصوير .تشاركها البطولة نخبة من الموبيليا مستوردة من برا، تشكل مع الصالون وغرف النوم والأكل والطهي والخدم و ...ديكورا غريبا عن عصرنا العربي المعاش بأزماته السكنية والغذائية و ...التلفونية.

وبعد مدخل من الموسيقى التهويلية يقدم لنا أثناءه كل الذين ساهموا في إطالة الشريط، تظهر البطلة بنت البيه الكبير، محامي قد الدنيا أو مدير عام أيها شركة أو ملاك متكرش أي إقطاعي من بتوع زمان ...تظهر وهي في خناقة مع ماماها التي تنتمي بدورها لعائلة باشا...

إيه القصة؟ قال إيه البت المفعوصة بتحب ! كده؟ ومين بقى؟ واحد صايع م الفلاحين ...ومالوا؟

هذا ما ستتكفل حلقات المسلسل المتعددة من توريطنا في تفاصيله المتشعبة لقطة، لقطة، إلى أن تهوى الجفون على العيون التي أدركها النعاس من القرف المشع من تلك الصناديق المحظور عليها كل ما من شأنه أن يصحي العقول.

24 فبراير1983

وَذاتَ

مساء، تبخر بعلها، فارتبكت وضعيتها، وتضخمت مهامها، ولما عجزت النشرة القضائية عن تعقب آثاره، تناولتها ألسن لا عظم ولا لجام لها بحصص من قيل وسمع .فشمرت على ذراعيها البضتين وقصت شعرها واقتنت من الأسماء أجملها وأخذت مكانا لها وراء الكونتوار تروح وتجيء كمرقص ساعات زمان.

تحتفي بقدومهم، تناديهم بأسمائهم، تفرغ منفضاتهم، وتنظف مواقع مرافقهم، تغوص في شؤونهم، تلتقط أسرارهم وتفتح لهم صدرها وقنينات باردات يثلجن ما في الصدور إلى حين.

ويشربون، وتمتد الجسور ويتواصلون، وتسقط الحواجز، وتصفو النفوس، وتمتد الجلسة إلى أن تتراكم القنينات ويصعب عدها، فينسل البعض إلى المرحاض لإعادة ترتيب ما في أمعائه وعد محتويات جيوبه تحسبا لنهاية الجلسة .أما المتمرسون، المداومون فهم في ثرثرة تسود فيها الأنا وتنزه على حساب كل الغائبين المستباحة ذواتهم من أجل قنينات أخريات.

وتقترب ساعة الإفراغ، وتتبدل اللهجة وتشتد، ويتعطل اللسان، وتتعثر الذاكرة، وتلوث النفوس بحساسيات كانت مدفونة قبل قليل، وتتحرك الأيدي تصر في الهواء والطاولة قبل أن تشكل وسادة لرأس لم تعد العنق تطيق حملها.

وتترك الكونتوار، توقظهم، تذكرهم بذويهم، تلاطفهم وتصالحهم، تنهرهم، وأخيرا تحاسبهم قبل إفراغهم من المكان أسرابا تجتاح الشارع محاذية جنبات العمارات تفاديا للتحقق من الهوية.

10 مارس 1983

لاَ أحد يدري كيف دخل إلى مدينتنا ولا الجهة التي تخلصت منه في اتجاهنا. ضحك إلينا مرارا قبل أن نجود عليه بانفراجة من شفاهنا سريعة وصفراء، لم نشعر كيف اقتلعها من وجوهنا العابسة.

منظره كاريكاتوري بشكل رديء فوجهه لا سحنة ولا سمة له، نبتت عليه عينان متنافرتان لكل منهما مجال رؤيتها الخاص، وبين الأنف والذقن مساحة عريضة يشغلها فم مختل التوازن يميل إلى الأسفل من الجهة اليسرى وبداخله لسان غليظ في حجم ملعقتين كبيرتين يحدث صوتا شبيها بمذياع ضعفت بطاريته.

يسكن الحافلات في مجراها ومرساها، نجده بها خلال رحلاتنا المكوكية من البيت للعمل.

يحدث فراغا داخل الحافلة مهما كان وزن حمولتها، يبث منه أغانيَ يقولون إنها شعبية، غنية بمقاطع إباحية مع وصلات قصيرة من الأمداح لا نعرف لحد كتابة هذه السطور شيئا عن مؤلفيها الأصليين .وسيان عنده إن اتكأ على عمود أو ظهر راكب مادام يحظى رغما عن أنف بعض الممتعضين بقهقهات وتعاليق وغمزات الأغلبية بشكل يحول داخل الحافلة إلى عرس متنقل.

ينطلق صراخه مع انطلاقة الحافلة حروفا متداخلة يرمي بها اللعاب المفرز بغزارة من فمه، يتبعها بنقر ضحل على علبة حذاء لا علم لنا بمن ارتدى الحذاء وأهداه العلبة ...وتتكدس الحافلة ويعلو صوته، ويتناقص رقصه، وتعلو يداه فوق الرؤوس تحاول الضرب على العلبة فلا تصل . ويخبئ صوته، وتتسع عيناه تراقبان الجيوب وتمتد يده اليمنى تتساقط عليها قطع نحاسية تحولها لليسرى بعد تلمسها وعرضها على عينيه الجاحظتين، يتبعها بهمهمة قلما تجد أحدا يرد عليها بآمين ...ولو همسا.

وفي المساء يأخذ الحافلة الأخيرة، ينزوي على أحد كراسيها المفرغة يتفرج عليها تكنس آخر الركاب من المحطات.

ولحد كتابة هذه السطور، فلا أحد منا تساءل أين يبيت ومن أين ينطلق.

24 مارس 1983

هُو الآن بلحية ...لحية مؤقتة بالتأكيد، مادامت دواعيها تمويهية فقط ...هي على كل هلال أسود يتدلى من حافة أذنين في حالة التصنت القصوى على خدين أدركهما الجزر لتتجمع عند الذقن كتلة من الزغب الكثيف تتخللها شعيرات بيضاء كأن صاحبها غسل وجهه خطأ بماء الجافيل.

شكل وجهه مميز ويلتصق بالذاكرة لأول نظرة، فهو مخالف للمقاييس المألوفة عادة.

نجده بالمقهى .وقد يلحق بنا .يأخذ مكانه بكيفية تجعله يتعامل مع قهوته دون التفريط بملامحنا ولا بذبذبات شفاهنا، وأوراقنا، ومحدثنا .فإذا فاجأناه، مال على كأسه يحركها ذات اليمين وذات الشمال ثم يعيدها إلى مكانها الأول دون تذوقها، فهي باردة ومرة ورديئة .ولكن ما العمل؟ حقا فهي مهمة صعبة أن يتناول المرء القهوة طوال اليوم .فمن أين له هذا؟ أعصابه ولا شك على وشك الانهيار، جيوبه توسعت من كثرة تردد يديه عليها، وفي حالات كثيرة كان يبحث عمن يتمم له ثمن قهوته تماما كما كان يحدث لنا ونحن صغارا أمام باب السينما.

للحقيقة والتاريخ نقول:

ما كلمنا ولا أجبناه

ما سعى إلينا ولا رحبنا به

ما حيانا ولا رددنا عليه بأحسن

فقط كان يحصي أنفاسنا، ويرتبنا في ذاكرته

ونحن؟ لا نفعل شيئا سوى تجاهله. 7 أبريل 1983

الطّفلُ

يتوجع ...أُعْطوه الكامون ...فعلنا ...والزعتر؟ جرعتين وتقيأ .إذن فلنحمله إلى الصبيطار.

بناية جميلة لها مدخل كبير، محروس ليل نهار، تعبره إلى حديقة مزهرة تحت أنظار حارس لا يستعطف ولا يرتشي إلا في الحالات المستعصية .وعبر ممرات ملتوية تصل إلى قسم المستعجلات لتنتظر سويعات من يستعجل معالجة وجعك.

الصبي مازال يتوجع .افتح فمك ...قل آه ...أعد "السماعة" تتجسس نبض قلبه، وتنفسه، الزئبق يركض داخل الأنبوب بينما الأصابيع المعقمة تعلك بطنه .ماذا أكل؟ خبز وشاي لا غير ...وكالعادة .هل يحدث له دائما هذا؟ أحيانا ونعالجه بالكامون .وحوش ..! إخْ..!

اسمه ...عمره ... الطفل أسكته الفزع .وخارج الغرفة أطفال تداخل عويلهم وأنينهم في انتظار من يسألهم عن أسمائهم وعناوينهم عندما يأتي دورهم.

إنها الزائدة الدودية.سيبيت الليلة هنا و ...يبيت؟؟ وهل سنأكله؟ نعم سيبيت الليلة لإجراء فحوص وغدا نجري له عملية جراحية لاستئصالها . عملية جراحية؟؟ نعم... نعم، المهم أن تخرجي الآن لشراء "سيرو " لتهدئة أعصابه كي ينام .في هذا الليل؟ وماذا تنتظرين ...ليس بالمستشفى أدوية ...سوف تجدين صيدلية الحراسة مازالت مفتوحة.

الزائدة سليمة .إنه الخبز الذي تفاعل مع الشاي فتكوم في مصرانه الغليظ مما سبب له الإمساك ...فتحاشي المبالغة من الخبز والشاي.

هذا ما قالوه لها، وماذا أعطيه؟ كادت تجيبهم.

21 أبريل 1983

تركَهم

وأتى البحر لتهوية الغليان الذي نشب في صدره وإطلاق العنان لخياله ليستمتع بالأفق حين تغرق فيه الشمس التي كوته بحرارتها وهو يدق هذا الباب، ويطوي ذاك الشارع بحثا عن ثغرة ما ينفذ منها، وينفلت من هذه الأيام المتشابهة والمجانية.

طاقيته كمنارة منسية من عهد القدامى، تمر بها السن محملة إلى بلاد الوفرة، بينما يداه تخط على الرمل الذي تراجع عنه الموج خريطة الوطن .هنا طنجة منها يهاجرون وإليها يعودون.

مشاريع شتى تبتدئ في رأسه بـ "لو" المستحيلة لتنتهي تنهيدة جريحة تحملها الرياح الغربية إلى المرتفعات العليا داخل الوطن ...لو كان لي جواز السفر ...لو كان لي معارف في مكتب التشغيل ...لو ... لامتطيت القطار ذات صباح، وعبرت البوغاز ذات مساء ...واختفيت هناك أشتغل من الفجر للفجر.أكنس، أمسح الزجاج والأحذية، وحتى المراحيض، أحفر، أبني، أهدم ...ومن أجرتي هناك أرسل ما يعيد للزوجة نضارتها، وللأولاد صباهم .وذات صيف أقتني سيارة ولو كانت مستعملة، أُحمّلها هدايا معلبة، علب شاي، صابون، عطر وقرنفل ...أعبر بها الحدود في طنجة أرشي هذا وذاك وأدخل الحي دخول الفاتحين!...

أما البحر فهو ماض في مداعبة الذين جاؤوه من الأحياء المجاورة يعاندون أمواجه الهادرة حينا، والهادئة حينا آخر إلى أن تواتيها الفرصة فتجر من خارت قواهم إلى الأعماق المظلمة...

28 يوليوز 1983

خرج ولم يعد!!

الوَلدُ عجائز الدرب تكومن على قارعة الطريق ينبشن ذاكرة التاريخ لاستحضار صور كل الذين خرجوا ولم يعودوا قط ...فهم كثر.

الأمهات هرولن إلى بيوتهن يعدن إحصاء فلذات أكبادهن مخافة أن يكون بينهم من خرج ولم يعد بعد .فهذه حالة مألوفة في الصيف.

الآباء تجهمت وجوههم، وأقسموا بالإيمان المغلظة، رافعين أيديهم إلى السماء كي تهوى ضربات موجهة على الرؤوس العاقة التي تعج بها بيوتهم . فضربهم أهون من فقدانهم.

أما الأم فقد تجلدت طويلا إلى أن تيبست أعصابها، فوضعت أصبعيها في أذنيها، وفتحت فمها على مصراعيه كي تتركه صرخة لا نهاية لها كسيارة إسعاف اجتذبتها مكالمة مجهولة لعنوان مجهول، فإذا استطاعوا تهدئة روعها لبعض الوقت، فشلوا الوقت كله في منع تداعي صور وليدها منذ كان مجرد مشروع في بطنها يشبعه ركلا إلى أن صار بمقدوره الخروج بمفرده والعودة بمعية أبيه قابضا عليه من قفاه يشبعه ركلا أمام جموع أقرانه الهازئين منهما.

الولد لن يعود ...هذا ما لا تعرفه الأم وهذا ما يخبئه عنها شهود العيان الذين رافقوه في الصباح إلى البحر كعادتهم في الصيف ...موسم الهجرة من أفران الصفيح إلى صخور الشاطئ حيث يقضون ساعات يومهم وراء قصبات مرتفعة بألف سلك، والقفز على الأمواج العالية بعيدا عن لغظ آبائهم، وخوفهم.

الولد لن يعود فهو الآن يتآكل في الأعماق السحيقة كما تآكلت من قبله كل المشاريع المزمع إنجازها لفائدة ...الطفولة . 4 غشت 1983

..!

كَانَ كنا صغارا عندما حمل حقيبة صغيرة وهاجر ترافقه عاصفة من الحزن والدعوات.

رسائله الأولى إلينا كانت مميزة بخطها المائل ذي الحروف المتداخلة والتي تملأ وجه الغلاف عن آخرها، وبالطابع البريدي ذي الرسوم الجميلة والألوان النادرة والذي كنا نتعارك من أجل اقتلاعه من الغلاف.

كانت الأسرة بأكملها تجتمع في ذلك اليوم لقراءتها، وكانوا يبكون، وكنا نخفي ضحكاتنا بعناء كبير .وكلما صادفتهم جملٌ مستعصية القراءة أحالوها علينا.

رسائله تعج بالأسماء، أسماء نشاركه في معرفتها وأخرى لم نسمع بها قط وعلينا إبلاغها تحياته وأشواقه التي كانت دائما حارة .وكان وصول رسائله بمثابة إعلام بقدوم طرد لا يخلو إطلاقا من علبتين من الشوكولاتة وأنواع من الحلوى تثير جدلا عن تركيبها، وقمصان ناعمة ومزركشة برسوم لحيوانات أليفة تثير الغيرة في عيون معارفنا من الصغار الذين ليس لهم مثلنا أخ أكبر في فرنسا ...وحوالة ما أن يمسك بها والدنا حتى يمررها لجموع الدائنين الذين يترقبون توقف ساعي البريد ببابنا.

كان يتحدث كثيرا وبدرجة لا تصدق عن الطقس وتقلباته المفاجئة، ويرجع إليه كل التطورات التي يعرفها في شغله .فقد كان بناءا.

وعندما تنقطع رسائله، كنا نقلق ونملأ انتظارنا بترويج الإشاعات عنه بيننا .تقول الأم إنه قد يكون تزوج من نصرانية وأنجب منها أطفالا ذوي عيون زرقاء تتمنى رؤيتهم قبل مماتها، وعندما نسايرها في تصوراتها

الحزينة تجهش في البكاء ويضطر الوالد للتدخل لإجلاء سحابة ذلك الانتظار الحزينة عن طريق إعادة نسج ذلك الحلم الذي يراودها كلما اقترب الصيف .لو يعود هذه المرة نزوجه بنت الجيران بعدما تزوجت بنت العم التي لا تستحقه في الحقيقة بعد طول الانتظار.

وعندما يعاود الكتابة إلينا بتحياته، وطروده وحوالاته، نطمئن ونعامله كأنه على مسافة قريبة منا، تقول أولى رسائله إنه كان على حدود الموت، وأنه لزم الفراش طوال فصل الشتاء وأنه فصل من عمله والآن وجد عملا آخر، وترك الفراش، وبدأ يسترد صحته.

ونحن كبار، علمنا من أصدقائه الذين لم يسعفهم حظهم مشاركته الهجرة أنه أقسم ألا يعود للوطن إلا ومعه أسباب كافية لعيش كريم له ولعائلته.

وعاد، بلا بهرجة ولا زغاريد، عاد، كأنه قادم من مدينة قريبة، وفي محتويات حقيبته صور بالأشعة لجانبه الأيمن الذي تنمل وأدركه الشلل . عاد توا إلى الفراش ...ليموت أمام أنظارنا التي اقتلعتها الدموع من مكانها، ذهب متكامل البنيان وعاد إلينا بالتقسيط.

وفي الصباح، وضع أهل حينا الطيبين صينية لجمع التبرعات لكفنه ودفنه.

فقد كنا وما زلنا وكما تعلمون فقراء.

18غشت 1983

افْترَشا

صخرة وجلسا .أمامهما البحر وخلفهما حكايات وأقاويل جاءا بها إلى ثنايا تلك الصخور لغربلتها . رذاذ الموج ينعش أقدامهم العابثة بالماء المتجمع في الحفرة الصغيرة.

كانت تتنهد وتعاتب، فيما هو ساهم الطرف، عيناه تلاحق الأجسام العارية إلى أن تغطيها الأمواج، أو تميد بها الرمال الذهبية .ولما أفرغت ما في صدرها من تُهم وشكاوى، تبادلا الأدوار، وأعاد بصره إلى حيث يجيب، وانضمت يداه إلى شفتيه يتوعد ويهدد ...وهكذا إلى أن خلا الشاطئ، فتشابكت أصابعهما وحذيا حذو العائدين بخطى بطيئة ومترددة.

من جملة ما قال :مع أول أجرة لي، أرسل والدتي لبيتكم لتقابل الأم لجس نبض الأب واستدراجه إلى ما نريد، فإن طاوعها، تدعمت برجلين مؤتمنين ولا غبار على ذمتهما لإتمام ما وعدت به أمي حسب التقاليد والأصول .وبعد قراءة الفاتحة إلى آخرها متوجة بزغاريد تهز المكان، تصبح الطرق آنذاك مفتوحة لقدوم موكب من سيارات "هوندا" مشحونة ببعض المواد الأولية من سكر وزيت وشاي، مع حفنتين من الحناء، والتمر ولترين من الحليب المعقم، وكسوة زوج من كل نوع ...وأشياء أخرى سوف لن تنساها الوالدة، ووراء السيارتين جوقة من أمهر "الغياطة والطبالة" يراقصون مجموعة من خيرة نسائنا وبناتنا بشكل يملأ الشارع أنسا ومرحا.

وعلى مشارف الدرب افترقنا، كل في اتجاه.

كانت مطمئنة إلى أقصى الحدود.

وكان مضطربا ومهووسا تتنازعه أعباء وعوده.

25غشت 1983

الطّفلُ

في الرابعة من عمره، أما مطالبه فهي تتجاوز سنه وقامته بكثير.

طول اليوم وهو لا يتعب من ترديد مطالب مستحيلة في مجموعها .جمل ملوكة تنقصها حروف كثيرة، ويدفعها لعاب ملون خارج فم تجمدت على جنباته بقايا حلوى من النوع الرخيص ...لا يهمه أن تتحقق بعض مطالبه، بقدر ما هو مصر عن التعبير عنها بطريقته الصاخبة، الناجحة أحيانا ولو في أسوأ الظروف، لا يهتم بمصداقية وعودي، فهو في لحظة ييأس من جملة مطالبه أو يتنازل عنها مقابل فرصة سانحة للعب.

بعض مطالبه مثيرة ومحرجة، تصوروا ... !إنه يطالب أحيانا بامتلاك طائرة، أو سفينة، أو سيارة مجنزرة أو مدفع رشاش، ترسانة حربية، استعداد مكشوف للحرب .أفلا ينوي مهاجمتي من أجل علبة ياغورت؟

إذا خرجنا معا، خيل له أننا ضمن بعثة تجارية تستطيع شراء كل معروضات الشارع، فيستوقفني أمام كل دكان ويطالبني بالدفع، نقدا، وبدون مساومة .يريد امتلاك كل الشارع في الوقت الذي لا أملك فيه سوى مساومة الأثمنة والتعليق عليها بالعبارة المتداولة في أوساطنا "لا..غالي بزاف المعلم".

وهو ككل الأطفال لا يمل من اللعب .كل الموجودات قرب يديه لعب إلى أن أفاجئه فيتركها مهرولا، يصرخ "مانعاودش" ويعاود .المجال ضيق، واللعب مفقودة، وأنا تركت اللعب، إذ كيف ألعب، أو حتى ألاعب في الوقت الذي أشعر فيه وكأني لعبة متجاوزة، أما هو فكل الموانع والعوائق، كل المحرمات، والمحظورات عاجزة عن إفساد لعبه . فإذا استهلك طاقته عن آخرها سقط جنبي، متسخا، ممزق قميصه، ومخدوشة أطرافه، فأميل على جبينه أعده أني سوف أهديه يوم تطاوعني

يدي كل محتويات الدنيا ليلعب بها لحظات وكما يحلو له قبل أن يكسرها وهو يردد "مانعاودش".

رغم صغر سنه فهو لايمكنه الاستغناء عن حصص الإشهار في التلفزة يقلد أبطالها من الأطفال في كل شيء .وهو وإن كان أهزل منهم وأوسخ، فهو يستطيع ارتكاب كل حماقاتهم بنفس الصخب .وإذا كنت أستسيغ مطالبه من المشروبات والملابس وأنواع السيارات المعروضة بالمجان على الشاشة، وكذلك استئناسه بصغار الإشهار وترديد أناشيدهم، فأنا لا أستطيع هضم مطلبه بفتح حساب بنكي خاص ...حساب بنكي خاص ؟؟ في الوقت الذي شطب فيه على حسابي لعجزه عن مسايرة العمليات البنكية، واكتساب الحد الأدنى من بشاشة موظفي البنك، أينوي الانفصال عني؟ وفي مثل سنه؟

فما رأيكم في تحويل جهاز التلفزة إلى لعبة بين يديه؟ لـ ...يكسره

1 شتنبر 1983

أَمّا من جهتنا فنحن بخير .فأمك مازالت، ورغم تعرضها لجميع الأوبئة والأمراض، قادرة على بث الذعر في سكان القرية بصراخها وعويلها كلما مس مكروه أحد صغارها أو بقرتها العجفاء التي حاولت مرارا التخلص منها فلم أفلح.

إخوتك !فأما الكبار منهم فقد ابتلعتهم مدن لا أعرف أسماءها، ولا الطرق الموصلة إليها ...وأما الصغار فهم يولدون ويموتون بوتيرة مملة ... لا تستغرب من قساوتي .فأنا لم يخطر ببالي يوما أن أنجب مثل هذا العدد الكبير منكم، وعند الحاجة ألتفت حولي فلا أجد يدا واحدة ممدودة لشد عضدي ...فلم يعد بالبيت غير أفواه إن لم أغلقها بأي شيء نهشتني ...حتى الكلب، تصور !حتى الكلب، فبدل خروجه لنبش القبور الحديثة، ومطاردة الطيور العطشى ...يقضي يومه ممددا على بطنه يعبث بلسانه وذيله في انتظار حضوري.

البيت تهدمت أجزاء كبيرة منه، وهو في انتظار أحدكم لترميمه، أما أنا والأحياء الذين تحت كفالتي فتكفينا في الظروف الراهنة الغرفة التي بجانب البئر .أتذكر يوم عثرنا على الماء؟ وكم كانت فرحتنا حتى أني شاركتكم اللعب به برش بعضنا البعض...

ليت تلك الأيام تعود .اليوم جفت وضحل قعرها منذ توقفت الشمس فوق رؤوسنا كأنها فقدت مدارها ...تكوي جلدتنا، وتبخر قطرات الماء الموحلة والتي نكذب بها على عطشنا .فالماء يا ولدي أصبح العثور عليها يقتضي سفرا طويلا في اتجاه جوف الأرض مسافات، يعود بعدها الدلو خفيفا وكما نزل .وأما السواقي فقد استوت مجاريها، وأما الظل

ففقد كما فقدت أشياء كثيرة من السوق الذي تخلصت من عادة حضوره كل أسبوع.

فأعوان السلطة أكثر من السواقة، ولا هم لهم إلا مضايقة هذا، والقبض من ذلك.

يا ولدي ...أنا لم أقصد إزعاجك، فأنت الوحيد الذي أعرف عنوانه، وهو الوثيقة الوحيدة التي أملك وأحرص على بقائها مقروءة. وبالمناسبة ...لماذا تغير عنوانك باستمرار؟ أأنت مطارد؟ أم لوفرة بيوت السكن في المدينة؟ ولم خبأت عني أنك تبيع الفواكه عند محطة المسافرين؟ لقد سرني ذلك على كل حال، وتمنيت لو يكون إخوتك مثلك.

يا ولدي ...ترى كم يكلفنا السفر إليك؟ فمحنة السفر أهون من محنة العطش...

8 شتنبر 1983

محفظة كبيرة ...أريد كبشا...

أُريدُ

أريد ...أريد...

تركتهم وخرجت، الحبل في يدي وقطيع الخرفان أمامي، وهذا البدوي المتكرش الذي لا يلين .ولم يلين؟ أليست مواقعه الخلفية محصنة؟

أ وراءه مثلي فواتير الكهرباء والكراء، والبقال، أعيدت جدولة تأجيل أدائها أكثر من مرة ...أوراءه محفظات تلزمها هي الأخرى فواتير مؤجلة الأداء؟

ولم لا يلين؟ ألم أعطه نصف أجرتي مقابل قِطّ بالكاد يقول ما ...م . فما أعارني اهتماما، بل حرك رأسه أفقيا ...يمينا شمالا، لم لا يحركه عموديا ...من فوق لتحت ...آه لو حركه عموديا، لقفزت على ذلك القط المتقمص في بطانة خروف وجررته غصبا إلى أول سيارة هوندا بهذا الحبل الذي تيبس في جيبي، وأدخلته الحي تحت وابل من مبارك مسعود، وفضول مكشوف من الجيران ...هذا يحاول رفعه عن الأرض ليقدر وزنه أوتوماتيكيا، وذاك يتلمس ذيله وعموده الفقري ثم يزم شفتيه ويلتفت للآخرين يخبرهم بنتيجة فحصه، فيما آخر يجرني جانبا يستنطقني عن الثمن الحقيقي الذي دفعته فيه قبل أن يأخذ يدي ليضغط عليها وهو يردد مبارك مسعود وبحرارة نسبية.

إشارة عمودية من رأس هذا المتكرش وينطلق المسلسل- لم لا يلين؟ جرت العادة أن أعطي نصف الثمن المطلوب، فهذا ما تعلمت، وهذا ما فعلته، ولهذا تحركت رأس البدوي أفقيا وليس عموديا كما رجوت .لا بد من إعطائه كل أجرتي منقوصا منها فقط ثمن الهوندا ...والتوابل؟ والأمواس؟ والسفافيد؟ وبقية الشهر والشهر الذي يليه؟ والدخول المدرسي؟ ... هدوءا ...هدوءا ...الأحسن أن أترك السوق فورا إلى أول

مقهى لأعيد جدولة الأولويات ...آه لو تصرف جميع الناس مثلي لما استطاع هؤلاء الملاك تحريك رؤوسهم في أي اتجاه ولا ختل قانون العرض والطلب لصالحنا بالتأكيد.

في الحقيقة أنا أيضا أريد خروفا أعبث بأجزائه كما أريد، أنا فقط أستطيع تلوين رغبتي بمبررات واقعية، أما المحترمة وأولادها فيصدحون برغبتهم مجردة من أية لباقة، ولهذا كانت مواصفات الكبش المطلوب مني جره إليهم لا تقبل التفاوض على أساس واقعنا المتأزم الذي أتحجج به صباح مساء، فماذا يقول الجيران؟ وأين نختفي غدا العيد عندما يسيل الدم في الحي، وتتصاعد رائحة الكبد لعنان السماء؟ هل نضع قطنا في أنوفنا؟ هل نرحل؟ وإلى أين؟ إلى الشاطئ؟

22 شتنبر 1983

وقَفَ

طويلا يتأمل الجموع المحتشدة حول دكان بيع الأدوات المدرسية والدفاتر ...وكادت قدماه تعودان به إلى البيت دون أن يشتري شيئا، والورقة المليئة بأسماء الكتب وعدد الدفاتر وأحجامها المختلفة، بين يديه يقلبها ...يحصي عدد ما بها من لوازم الدراسة لابنته التي وصلت هذه السنة للقسم المتوسط الثاني، كم ستكون فرحتها شديدة لو عاد لها بكل ما طلب منها في المدرسة، ولكن ...اللائحة طويلة وأثمانها باهظة، كيف أستطيع شراء هذا كله . وقف لحظة ليست بالقصيرة وهو يقلب الورقة بين يديه وأخيرا استجمع قواه واندس بين الجموع المحتشدة حول باب الدكان ...(ليكن ما يكون، المهم ألا أعود خاوي اليدين ...المهم أن أوفر لابنتي الوحيدة كل ما تحتاج إليه لتصبح طبيبة، المهم أن تتعلم وتنجح ...وجعل يعد السنوات، ثمان سنوات فقط وتحصل على الباكالوريا ...المفروض أن تنجح كل سنة حتى أستطيع أنا وأمها أن نفرح بها وأن نراها تدخل كلية الطب لتتخرج منها بعد سنوات، طبيبة كبيرة توفر علينا تكلفة الطبيب وتحصل لنا على الدواء بالمجان من المستشفى الحكومي، وتشرف على علاج كل الأقارب بالمجان . كم سأكون سعيدا .كم سأكون فخورا بها وهي تلبس بذلتها البيضاء وقد علقت على صدرها سماعة الطبيب . وانفرجت أساريره واندفع نحو الجمع المحتشد حتى وصل إلى البائع قدم له اللائحة، فجاءه بالكتب المطلوبة والدفاتر والأدوات وبعد جمع الحساب قدم له الفاتورة : مائة وخمسون درهما .حملق فيه مشدوها :كم؟ ! كررها البائع وانصرف إلى زبون آخر ريثما يستخرج النقود من جيبه، لم يجد المسكين مفرا من تأدية الثمن وهو كل ما في جيبه، أخذ مشترياته وخرج متثاقلا يجر قدميه ولا تكادان تحملانه، وهو في طريقه إلى البيت يعيد صورة المستقبل

الباسم الذي ينتظر ابنته إن هو حمل إليها هذه اللوازم ويعلل نفسه عما ينتظره إن هو لم يدفع ثمن كراء البيت ذي الغرفة الواحدة، وإن هو لم يستطع دفع ثمن المصروف اليومي والشهر لا زال في بدايته وهو الذي يتقاضى 300 درهم فقط مقابل اشتغاله منظفا لعمارة .هذا عدا ما ينتظره من زوجته المسكينة التي ستصب عليه نار سخطها بعد يوم كامل من العمل في فيلا صاحب العمارة بدون مقابل، إلا ما كان من بعض الملابس القديمة لابنتها وبعض الخبز البائت ...دخل المسكين وهو يحاول أن يرسم ابتسامة على شفتيه يداري بها حزنه وحسرته مما ينتظره ...وحتى لا تشعر ابنته الوحيدة) التي هي أمله في هذه الحياة (بما يعاني من غبن، وبما يشعر به من ضيق ...أو ليست هي الوحيدة في هذه الحياة ...أو ليست هي التي ستنقذه وأمها من المرض إن هي أصبحت طبيبة مثل ابنة صاحب العمارة التي لا تجشم نفسها حتى مشقة النظر إليه فأحرى تقديم العلاج، وقد أصبح ألم الروماتيزم يلازمه طول الوقت ...أو ليست هي التي سترفع رأسه عاليا حين يكتري هو أيضا شقة في العمارة التي يعمل الآن على تنظيفها وتدفع ابنته ثمن الكراء ... وآنذاك سوف يتخلص من احتقار صاحب العمارة له .ولازال غارقا في تأملاته حتى تنبه على صوت زوجته:

-ماذا سنتناول في العشاء ؟...

20 أكتوبر 1983

لِمَ تتشابه أيام الشهر حتى لتبدو جميعها شبيهة بيوم لا انفراج فيه ...فأنت تتسلم وريقات وما أن تنتهي من تنيها حتى تتحول إلى قطع فضية سرعان ما تتحول هي الأخرى إلى قطع نحاسية أضأل حجما وأخف وزنا ينفر من تداولها الأطفال...؟ قد يكون الدولار وراء ذلك...

حدق في وجهي لحظة، ثم تجاوزتني عيناه إلى الفضاء الكوني مرورا بزبناء طالت قعدتهم أمام فناجين القهوة كأنهم في مأتم، ومن حين لآخر تتحرك رؤوسهم ببطء شديد وكأن الذي يشدها برقابها خيط رفيع لا يحتمل المفاجآت.

-فالدولار وراء كم من بلوى...

رفع راحة يده بعنف كأنه يريد بي شرا، ثم أنزلها في ارتخاء وملل على فنجان قهوته الذي أصبح جاهزا لقراءة الطالع، ولما أحس به فارغا، تخلى عنه، وأرخى لأصابعه تدق على الطاولة دقا ضحلا وسريعا كدقات قلب تجاوز حمولته بكثير...

الدولار ...الدولار...وهل أخبروك أني من طبقة التصدير والاستيراد؟ ... أنا أتساءل فقط لماذا لم تعد للوريقات التي نقبض القدرة على سد الحويجات التي لا مناص منها حتى الدخان ...فبعد عشرين عاما من الخدمة تجدني عاجزا عن امتلاك علبة من عشرين ...أتسلل كالأطفال المبتدئين إلى زاوية في رأس الدرب ...أشتري بالتقسيط واحدة أو اثنين، أمتصهما بشراهة في انتظار الطوبيس ...هذه العربة التي ولا بد أن تكون في يوم ما سببا في طردي من العمل ...العمل ؟ عمل واحد لم يعد يكفي، فلا بد من ممارسة عمل ثان وثالث...

-يقول الخبراء إن الأزمة...

أدار بوجهه إلى الجهة المعاكسة، وراح يتابع أفواج المارة التي تتقاطع أمامنا في كل الاتجاهات، ولما تعبت عيناه من ملاحقتهم، طلب الجارسون الذي

مضى وقت طويل على انسحابه إلى عمق المقهى في انتظار تحرك هؤلاء الزبناء الذين التجأوا إلى هذه الكراسي هروبا من جحيم بيوتهم...

-إن حديثك شبيه بنشرات الأخبار...

قالها ثم اتجه صوب محطة الطوبيس .

3نونبر 1983

أحسنِ ابتسامةٍ من "ألْبومها" وجهتني إلى قاعة كلٌّ المتواجدين بها مرضى، هدهم المرض والمواعيد البعيدة المدى، فتوسدوا بعضهم، يتبادلون التمني بالشفاء العاجل، وعناوين أشهر الأطباء في انتظار تلك التي نفذ زادها اليومي من الابتسامات كي تدخلهم إلى تلك الغرفة المظلمة.

هذا الذي بجانبي له سعلة على رأس كل دقيقتين أو ثلاثة، وكلما التفت إليه جاهدا للتخفيف من صوت سعاله الشبيه بصوت مخرطة كهربائية، يضع قبضة يده على فمه لامتصاص الصوت المشوش المندفع من رئتيه.

أما الذي يحاذيه، فهو وإن كان لا يسعل إلا نادرا، فقد كان يتمايل على الكرسي، من كثرة مبالغته من الانكماش والتمدد في محاولة يائسة لتدفئة روحه التي سكنتها الحمى من أسبوعين على حد تعبيره، حتى ليبدو للقادم الجديد أنه يحاول الاختباء عنه، مما أثار شكوك التي بجانبه، فابتعدت قليلا عنه لتصغي للتي ما انفكت تردد لكل من له رغبة في تمرير الوقت ...أنها حامل من سنة ويزيد، وما وجدت طبيبا واحدا كفئا لتخليصها من حمولة بطنها، مضيفة مازحة ...قد تكون الزيادات الأخيرة التي مست الحليب، أفزعت المسكين، ففضل الاستقرار في الظلام حيث الحليب مجانا ...فوافقتها على الفور سيدة يتدلى بثديها كمشة طفل يرضع قليلا ويتقيأ كل الوقت، وبعد وصلة وأخرى من الصراخ والأنين يعود للثدي يرضع قليلا و...

في زاوية منسية كان يتقوقع عجوز فان، يسعل ولا يصعد أي شيء من رئتيه يبصقه، فيمسك بجانبيه ويتأوه، فلا نملك إلا انتظار مرور النوبة بسلام، وترجي تلك التي ما عادت تبتسم كي تسرع بإدخاله إلى الطبيب مخافة أن تنتابه نوبة أخيرة من السعال تحولنا من مرضى إلى شهود.

كانت تناديهم بطريقة تربك حركاتهم، ونظراتهم، فيشيرون إلى بعض مرددين ...أنت؟ لا ...أنا؟ ...وترد عليهم بحدة ...نعم أنت...وتدفع بهم تباعا إلى الغرفة المظلمة حيث يقضي الواحد وقتا كافيا لتفكيك جميع أعضائه المعطلة وتعويضها بأعضاء في عنفوان الشباب .بعدها يترك الغرفة وفي يده ورقة تحمل من الرموز ما يجعل المرض يتضاعف أضعافا.

ولما جاء دوري، صرخت في وجهنا تلك التي ما ابتسمت قط، أن الطبيب خرج، فلم يكن يستطيع فحصنا جميعا هذا الصباح ...فنحن كثير.

10نونبر1983

ذو لون خاص، تضفي عليه ضحكاته الصاخبة كارتطام الأواني الفخارية ببعضها البعض مسحة خاصة يمشي مزهوا بقامته المتواضعة الأبعاد وكأن عموده الفقري **وَجْه**

مصنوع من الحديد لا عقدة فيه ولا التواء، يحمل في يديه رزمة من الجرائد والمطبوعات تحديا ونكاية بكل التعاليم الفوقية الجاري بها العمل اختياريا داخل مقر الجريدة ...وفنجان قهوة في مذاق العلقم لم يؤد ثمنه بعد، وعلبة سجائر احتياطية في جيبه كبطارية تزوده باستمرار بكل ما يلزمه لتعكير صفاء أي مزاج مهما كان رائقا.

تلك، بعض من الزميل م ...الخ ...الذي تجدبه القضايا المالية دون سواها، كما تنجذب أسراب النمل إلى فتات السكر .وهكذا، وما أن دخلت البلاد في متاهات لامتناهية من التعديلات، والجدولة، والقروض التي تلزمها هي الأخرى قروض، والأسواق التي تتسع لغيرنا وتضيق علينا ...و ... خط مستقيم يحفر على الورق أخاديد في عمق الأزمة، جداول تعج بخانات، إن طرحت بعضها من بعض، أو أضفت بعضها إلى بعض، أو اكتفيت فقط بإجراء مقارنات بينها، فإن الحاصل في جميع الحالات مخيب للآمال... ملايين الدولارات قال، وأستفسره ببراءة مصطنعة:

-"وكم تساوي بالريالات أيها الرفيق؟"

-"قبل انخفاض الدرهم أو بعده؟" أجابني بلباقته المعهودة .بعدها، هاجمني بعرض دسم عن إشكالية الشؤون المالية بلغة جافة تتضمن إلى جانب الأرقام التي هي بالدولار الأمريكي طبعا ...أسماء لأبناء، ومؤسسات، وموازين في حالة عجز مستمر، وذهب بكميات مغرية، لينتهي بعد ذلك إلى الخلاصة التي يحلو له ترديدها والتي مفادها "أن

على كل الغارقين في ديونهم الدخول في حركة عصيان مالي لإنكار ما تراكم بذمتهم من ديون جملة وتفصيلا" .وأرد عليه على الفور وبانفعال شديد "أن على كل الدائنين لوي أعناق كل الذين يخطر ببالهم التنصل من التزاماتهم"،

ذلك أنني أعرف أن المستهدف أساسا من خلاصته تلك، ليست علاقات تروستات الشمال بفقراء الجنوب، بقدر ما هي ضخامة ما تراكم بذمته من ديون كلما صفى جزءا منها، تفاقم الرقم من جديد وتصاعد لدرجة يستحيل معها تمتيعه بجدولة مرنة لصعوبة التحكم في الأقساط التي يقترحها.

24 نونبر 1983

سيدتي ..."البراكة براكتك"

تفَضّلي احْن رأسك قيلا، فعتبة الباب أقصر من قامتك، وحرام أن يخدش مسمار طائش وصدئ تسريحة شعرك الجميل، واللامع .شظايا زجاج ...واحذري أن تنزلق قدماك، فأزقتنا لزجة في مثل هذا الفصل الممطر، ولا يؤمها غيرنا نحن الذين ترعرعنا في ترعها.

تفضلي ...لم ترددين؟ يبدو أنك لم تدخلي قط حيا قصديريا، فتعالي أفرجك على ما صنعته أيدينا لإيواء شملنا ...ألواح من خشب صناديق الواردات، صفائح من علب المصبرات، ورق مقوى ومغلف بطبقة رفيعة من الإسفلت ...من هذه الجزئيات التي يشدها إلى بعضها البعض، حفن من المسامير أقامت هذه الصفوف المترامية أمام نظارتيك، المتداخلة والمتكئة على بعضها والتي تبدو للغرباء وكأن قوة خارقة ضغطت عليها، فاختصرتها إلى قطعة واحدة ومتماسكة تمتد على مسافات خارج المدينة.

الأزقة مرقمة، ورغم تحاشي ساعي البريد ولوجها، فهي تحمل أسماء بعض من أهلنا الأوائل الذين أسسوا هذا الحي براكة براكة، الحوانيت، يفوق عددها حجم حاجاتنا، وهي وإن كانت لا تقارن "بالسوبر" فنحن نجد بها كل ما نفتقده بالمركز من قضبان الشمع، وفتائل "الكاز"، ومصائد الفئران ...وحتى الحليب أحيانا.

وهناك وسط الحي ساقية ذات صنبور يتعطل يوميا، فينساب الماء عبر أزقتنا يحولها إلى مجاري ومستنقعات تجتذب الأطفال.

لا تهتمي بهذه الروائح، فهي وإن كانت متنوعة وغير متحملة، فهي على كل حال ليست سامة، ولا الذباب فرغم كبر حجمه شيئا ما، فهو ليس متوحشا، ولم نسمع يوما أنه فتك بأحد، فكل ما يستطيع فعله هو تعميش عيون صغارنا.

أضايقك تجمهر الأطفال حولنا؟ أعذريهم، فهذه عادتهم كلما حل بنا غريب تتألق النضارة والعافية في وجهه بشكل صارخ .فما بالك إذا كان هذا الغريب امرأة تتعاكس الألوان على جسمها، وتفوح منه رائحة عطر لا شك أنه أربك الآن حاسة الشم لديهم ...آه من شياطيننا الصغار... انظري إليهم إنهم يتغامزون علينا وحسنا لم تسمعي ما قالوه عنا،

تعبت؟ إنه لمتعب، ومقرف حقا البحث عن خادمة في مثل هذا الحي ...وفي مثل هذا الفصل.

22 دجنبر 1983

ثمانية، والتاسعة أمنا .فأما الأب فوجوده صوري، ويحتمل الإلغاء، لقد بلغ من العمر أرذله، ولا نحس بوجوده إلا عندما تنتابه إحدى تلك النوبات اللعينة من السعال الحاد.

نَحْنُ

نسكن بيتا تشكل جدرانه الثلاثة امتدادا لحي مترامي الأطراف، ومن أبرز مميزاته أنه يمنع الحرارة شتاء، والبرودة صيفا، وبه غرفتان ومطبخ ومرحاض، كلما احتجت إليه وجدته محجوزا لمدة غير يسيرة.

في الواقع لا نستعمل إلا غرفة واحدة، ووسط الدار المفتوح على السماء والذي تحلو به السهرات صيفا .كل مساء نتجمع بالغرفة، تتوسطنا الوالدة، تحكي لنا عن مشاهداتها في دار السيد المدير حيث كانت تشتغل منذ عجز الوالد عن القيام بذلك، كانت تستعمل بيتنا كوحدة لقياس أبعاد ومحتويات مسكن السي المدير، فمطبخه مثلا في حجم بيتنا وأكبر .أما الصالونان "البلدي والرومي" فهما معا، وحسب تقديراتها يتسعان لاحتواء كل سكان حينا ذكورا وإناثا، صغارا كبارا، وتقول عن المدير إنه إنسان طيب، ويستطيع امتلاك أو أكل أو ارتداء أي شيء يحلو له، فهو، وعلى حد تعبيرها، "خانز فلوس" .أما الذي كان يؤلمنا ويذبح كرامتنا، وخصوصا أختنا الصغيرة، فهو وصفها لمأكولاتنا بأنها دون مستوى ما يقدم لكلاب السي المدير بكثير .فقد كانت قاسية جدا، ولا يمر يوم دون أن تذكرنا بفقرنا وفشلنا، وبالعبء الثقيل الذي آل إليها بعد تراجع الوالد إلى زاوية في الغرفة، يستحضر أيام زمان ويضحك، وعندما تضطرها ظروف العمل للمبيت وخصوصا في مناسبات الأفراح والأعياد، نقلق عليها وننتظر عودتها بشغف لتحكي لنا ما شاهدته أثناء مقامها بالمطبخ، وما مر بأيديها في ذلك اليوم من أصناف الطعام الشهي ثم نميل على أصابعها، وبالتناوب، لشم بقايا الزردة التي عاشت كل أطوار تحضيرها.

أما الغرفة الثانية، فهي معدة للضيوف، ومحرم على جميع من في البيت دخولها باستثناء الأخت الصغيرة التي يسمح لها بدخولها لكنسها مرة كل أسبوعين على الأقل .ومنذ اشتغلت الوالدة وهي حريصة على تجهيزها وقد استطاعت اقتناء مائدة مستديرة، عليها غلاف، ومزهرية من البلاستيك، ومنضدة وحصير من النوع اللين الممتاز، وفي قعر الغرفة صورة لأطفال أجانب يلعبون، ويومية يحرص الوالد على نزع أوراقها يوميا، وتكليف أحدنا بقراءة حكمة اليوم الواردة على ظهرها، الغرفة مازالت مغلقة، لا يدخلها الهواء، ولا الشمس ...ولا الضيوف.

أكبرنا ترك المدرسة مبكرا، وبعدها البيت نهائيا، ولحد الآن لا نعرف مصيره، وكلما ذكرنا اسمه، تسممت الأجواء، وهددتنا الوالدة بالانتحار . أما أصغرنا فهو متعدد الولاء لا يعرف من فينا سيد البيت، فالكل يضربه، والكل يداعبه، فإذا حضرت الوالدة ارتمى بين أحضانها يبكي فتشملنا جميعا بشتائمها المرة بمن فينا الوالد.

هذه، وباختصار شديد، نبذة من حياتنا، ورغم ذلك فلن تجدوا واحدا منا يرضى التصريح بذلك، فنحن نعتصر مدخول الوالدة اعتصارا ليبدو أحسن مظهرا ممن لا دخل لهم.

9يناير 1984

حَياةُ

السيد عمر هي من الرتابة والاستكانة ما يجعلك تشعر كلما عاشرته برغبة جامحة تسكنك للانقضاض عليه والإمساك برقبته لرجه وزحزحته عسى يطرأ طارئ طفيف على مجرى حياته تلك، فهو غدا أشبه بقطار بطيء انطلق من خمسة وأربعين سنة من مسقط رأسه بقرية مجاورة في اتجاه أقرب نقطة حضرية ...ولم يصل بعد.

منذ عشرين عاما، وهو وراء سجل كبير، يسجل المصروفات، ويعتني بترتيبها، بينما يتفادى ما حوله من حوادث وأحداث، وإذا استدرج للمساهمة برأيه في موضوع من المواضيع التي نلوكها في انتظار نهاية اليوم، استهل تدخله بسعلة مصطنعة أتبعها بنحنحة متقطعة قبل أن يقول "يقولون ...إن..." دون الإفصاح أبدا عن مصادر أخباره، ثم يختم بجملة مأساوية لا يرددها إلا في الأيام الحرجة "الوقت خانزة ...الله يحفظ "بعدها ينحني على سجله يلاحق سطوره وهناك إلى نهاية السنة حيث يستبدله بسجل جديد، فإذا احتد النقاش، والتهبت فقراته، وتناثرت معانيه هنا وهناك لتطال كل المواضيع التي يقال إن للجدران خاصية التقاطها وتسريبها، فهو يتحين أول فرصة سانحة، يغادر بعدها المكتب بعد حركات تمويهية في اتجاه المراحيض.

السيد عمر ...نادرا ما يثور، ونادرا أيضا ما يفرح، فتقاسيم وجهة مازالت هي هي ...كما عرفناه، ولولا المجازفة بالرأي لأمكن الجزم بأنها لم تعد صالحة لأي انفعال، فهي وكأنها نحتت من حجر .وهو بالإضافة إلى ذلك لم يتغيب قط، ولا جاء متأخرا، أو بدون كرافاطة ذات ألوان ورسوم أصلية، أما عطلته السنوية فقد كان حريصا على أخذها في الفاتح من غشت من كل سنة، وقضاءها مع الأولاد في تطوان.

وفجأة ثار السيد عمر ...أرعد وأزبد، طوى سجله وشتمنا جميعا بمن فينا زميله الحميم السيد مسعود المكلف بتسجيل المداخيل، فارتبكنا واختل سير حياتنا اليومي ولم نعد ندري أنصر على تهدئته أم نتركه يقتلع القناع الذي ألبسته إياه سنون الحياد التي قضاها في التقوقع على ذاته مخافة أن يصيبها ما يصيب الناس عادة.

ولأول مرة تغيب السيد عمر ...ذهب لحضور محاكمة ولديه ...وعندما يعود سوف نتأكد فعلا من أنه انتقل من حالة اللاغضب واللافرح التي سجن بها نفسه ردحا من الزمن إلى حالتنا التي ما برحناها يوما.

وغشيم هو من قال : الرماد لا يخفي جمرات قد تتأجج يوما ما.

16فبراير 1984

ذاتَ

يوم...ضَمّنا بيت رفيق أفرج عنه، غرفة مستطيلة الشكل ومبالغ في طولها، وعلى بابها ازدحمت عشرات الأحذية في انتظار خروجنا المؤجل مرارا، إذ بعد القهوة تناولنا الشاي وكلما شرعنا في النهوض لإخلاء الغرفة لعائلة الرفيق كي تعاود استنطاقه وفحصه من جديد نزل إبريق من مشروب ما وصحون لم أعد أذكر محتوياتها، فنعاود ترتيب الوسادات ثم نستسلم وعن طواعية لجاذبيتها مستأنفين لأحاديثنا من حيث تركناها لتشمل ما تبقى من سجون المغرب من مكناس إلى القنيطرة .كان الرفيق العائد من إحدى تلك المدن يبدو في ذلك اليوم كعريس بعد ليلته الأولى، يخفي سعادته بعناء كبير، ورغم سمرته الأصلية فقد ازدهرت كل الألوان الطبيعية على محياه.

جميع المهنئين كانوا من المفرج عنهم، لذا كانت فرحتهم تلقائية وأحاديثهم منسجمة ومتكاملة إلا فيما ندر من التفاصيل الجزئية ...وكان بينهم رفيق ذو وجه صغير في حجم كف اليد، ينساب على جبينه وبأناقة متأصلة شلال من الشعر أفحم وغزير يضفي عليه شاربه النحيف ملامح مبكرة من نضج سابق لأوانه .كل ما فيه صغير ومتناسق بشكل يؤهله لولوج كل القلوب ...أيا كانت ...وحتى الغليظة منها ومهما كانت مناعتها ضد الحب والعطاء.

هذا الوجه، الجليل في كل تقاسيمه وتعابيره ...كان بيننا في "أنوالنا" يداري آلام معدته، ويمسك بين شفتيه قلما جافا يدغدغه بين أسنانه لحين وضوح الرؤيا وطنيا وعربيا ...إلى أن هجروه جنوبا، صوب ذلك الوادي ليغرس فيه بوادر وعي متقدم، وعي لا يقف عند تفسير من أين تأتي المظالم، بل يطمح إلى اقتلاع جذورها، ومن ساعتها افتقدنا نكهته وطعمه، ولهجته الجنوبية التي تُرقص طبلة الأذن ...فقد كان بمثابة ملح طعامنا.

وفي ذلك الوادي الخصيب هاجمته جرارات مندفعة من قرون لها قرون اعتادت على ردم مصادر النور، وكان تعذيب جليل بعد إلباسه قمصانا

من الجنح في محاولة لاغتيال وعيه المتقدم بقرون مخافة أن يعانق السهل والوادي...

فطوبى لمراكش على نقلتها التي أينما غرست، أخصبت عشاقا مجانين لمستقبل هذا الوطن

1مارس 1984

تنام في هذه الليلة أيضا .ستقضيها صاحية .فمن يدري، قد يأتي من يدق الباب بعنف، وهذه المرة سوف تسرع لفتح الباب حتى لا تترك لهم فرصة محاولة إسقاطه كالمرة السابقة، فقد يردون في هذه المرة ما أخذوه عنوة.

لَنْ

خارج الغرفة الليل والبرد فرضا حظر التجول .قطرات المطر تتساقط على ألواح الزنك محدثة وقعا موسيقيا ضحلا يكرس التوغل في جوف سرير دافئ .جمرات الموقد خبا احمرارها و غطاها الرماد .بينما الأطفال قذفوا من جديد بطانيتهم، وعليها إعادتها فوق أجسامهم المثلجة . فالوالد الصغير عاودته عادة التبول في الفراش، ومن الأحسن إيقاظه لإفراغ مثانته فورا.

لن تنام...فبقية العمر كافية لاستدراك هذه الليلة البيضاء، ولن تتضايق من أرقها، فالذي يغيضها في مثل هذه الليالي، طولها، والفيض الغزير من الذكريات التي تطفوا على سطح ذاكرتها بفوضى متعبة .ذكريات ... بعضها في الحقيقة لا معنى لها، أما بعضها فهو يستحوذ على خيالها، فتسوي قعدتها وتنهمك في التفرج على نفسها محاولة وضعها حيث كان يجب، وبدون أن تشعر، تكسو وجهها انفعالات حقيقية كأنها تعيش الأحداث من جديد .وتارة تندفع الدموع من عينيها، وتارة أخرى تغلبها ابتسامة واهية سرعان ما تخنقها خوفا من أن يفاجئها الأطفال من تحت بطانيتهم على تلك الحال .فالمرء لا يجوز له الضحك في فترة الحداد.

الجنازة كانت مفاجئة، ورغم مرور الأربعين، فمازال هذا الخيط المتقطع من المعزين يشدها بذلك اليوم .جل المعزين من النساء، وأغلبهن لا تعرفهن، فلماذا يبكون هكذا ...بكاؤهن يثير عويل الأطفال، ورغم تجلدها فهي لا تفتأ عن مجاراتهم في نحيبهم مما يضطر الجيران للتدخل لمواساة الجميع.

الجنازة ...وهؤلاء المعزون الذين التحفوا كل أحزان العمر على وجوههم، ويجرون أقداما متثاقلة، يهمهمون بعبارة واحدة، قصيرة، وموحدة، ثم يعرجون على مصطفى يوصونه خيرا بالألم، والصغار، إرثه الثقيل من الهالك، وأين مصطفى الآن؟ ألن يوصوه بالوالدة والصغار؟ بلا ...لولا أنه الآن ينظر مشدوها إلى هذا المدعي الذي يكاد ينفلت من بذلته صراخا ووعيدا، يلفق كثيرا، ويهدد كثيرا .وبعد استراحة قصيرة يضرب على الطاولة ثم يعود يلفق كثيرا ويطالب بأقصى العقوبات.

وكيف تنام وغدا ينطقون بالأحكام.

22 مارس 1984

غَداً

من صلبنا يخرجون ...من بيوتنا ...من دروبنا وأحيائنا يتوجهون إلى ساحة ما في المدينة كي ينطلقوا صفوفا طويلة، وملتوية لكنها متماسكة ومتعاضدة، يرفعون لا فتات ملأوا بياضها بشعارات حديثة وقديمة تكشف عن معاناتهم اليومية ج وتفضح آثام ومظالم الباترونا التي باعوها قهرا قوة عضلاتهم - يوم كانت فتية - مقابل لقمة تتناقض كلما امتد بهم العمر.

صوت رجولي هادر، يندفع من حناجر ترسب بأعماقها العرق والتراب تواكبه تقاطيع ناعمة كدقات البيانو، تخلصت صاحباتها من الجلباب والحجاب، وجئن، سالكات نفس الطريق، إلى نفس الشارع، للمطالبة بالمساواة حتى ولو في القهر، فتحمل قهرين متزامنين شيء لا يطاق إلى ما لانهاية.

الصوت يعلو، يخترق ناطحات سحابتنا، وكلما امتدت المسيرة ازداد علوا، غليظ هنا، رخيم هناك، هنا وهناك قوي وحاد، يخترق الجموع المتراصة على جنبات الطريق لجرها إلى وسطه، يملأها حماسا إلى الهيجان، وينتزعها من فرحتها ومن همومها الصغيرة حتى ليغفل الزوج عن زوجته، والأم عن أطفالها، والأولاد يتيهون بين الصفوف العريضة يرددون شعارات الكبار، ويتمرسون على إصرارهم.

الإذاعة والتلفزة سوف يخترقها الحماس هي أيضا فيجرفها الفضول، وتندفع إلى الشارع، تبحث عن الجانب الاحتفالي في "احتفالات الطبقة الشغيلة المغربية" لتنقل لنا لقطات سريعة وباهتة إلا أنها فلكلورية ومصحوبة بتعاليق من الأرشيف عن كل المنجزات والمكاسب التي "حققت" لفائدة عمالنا ...جهاز السكانير لصيد خبايا أجسام عمالنا المنخورة ...مصحات حديثة وعصرية ...ولا مثيل لها جنوب حدودنا ... الضمان الاجتماعي وحتى حق التقاعد، ودفعة واحدة لفائدة العمال

الزراعيين ...إعطاء "تسهيلات" لعمال لنا بالخارج لدى عودتهم إلى وطنهم... هذا بالإضافة إلى قائمة من الحقوق ...النظرية والمواظبة للحد الأعلى في كل شيء.

وفي الضفة الأخرى من هذه التعاليق المنومة، والصور الناجية من المقص، يوالي المعنيون بالأمر نضالهم اليومي، والمستميت، وعلى مدار السنة، من أجل حصر الاستغلال وجبروت الرأس المال في أفق اجتثاث المجتمع كله من التخلف ...إنهم رأس حربتنا في حربنا نحو غدا أفضل.

1ماي 1984

دوار أولاد افقيرة أولاد سعيد، إقليم سطات.

المَكانُ الزمان :عطلة الربيع.

الأطفال يلعبون، والكبار يبحثون عن عمل .وتدخل سيارة الإسعاف يتلولب ضوؤها الأحمر تصاحبه موسيقا مفزعة، ليس لأن مريضا يلفظ أنفاسه الأخيرة، قد يحدث هذا في المدينة، أما هنا فإن المرض لم يعد يفزع أحدا، ولأن الناس ربطوا معه علاقات شخصية أقل ما يقال عنها أنها ودية، ولأن الناس أصبحوا يعدون له المطايا ويبيت في العظام، بل لأن أحدهم أخرج السكين وغرسها في زوجته وأمها .قد يتبادر للبعض أن الأمر يتعلق "بخيانة" زوجية، نقول لهم إنه هذا الغليان النفسي الذي أصبحت رقعته تتسع يوميا، يكون تارة انتحارا ويكون أخرى هجوما على الغير ... يخرج الإنسان إلى الحقل، يتأمل بعيدا في الأفق، ليس ثمة سوى جفافا في جفاف، ويرجع إلى» المنزل «ليس هناك سوى جوع على جوع .فما الغريب إذا فعلت السكين فعلتها؟ !ولماذا ننتظر إلى أن تسيل الدماء لنقول "إنا موجودون"؟

بالأمس كان الناس يصطفون في سوق أحد مزورة) أولاد سعيد (ينتظرون قدوم الخمس كيلو غرامات من الدقيق العزيزة، يسل سيادته حزامه ويهرول إلى أحد المواطنين ليشبعه ضربا على مرأى ومسمع من الناس والأطفال ... ترى هل عاد السياط من جديد؟ وهل أصبح أكثر "شعبية" ليصل إلى السوق؟ يا هؤلاء الناس !يا مالكي السياط !كفاكم ضربا لنا، أو ما تشبعون من الضرب؟!، أ، لم يكفيكم هؤلاء المناضلون وهؤلاء الطلبة والتلاميذ...؟ أم أن سيادة الحجاج بن يوسف قد قام من قبره ملهوفا ليعلن أنه آن الأوان لقطف رؤوس يراها» نضجت«؟ لماذا ننتظر قدوم الحجاج؟ ولماذا لا نسارع نحن إلى قطف رؤوس زوجاتنا وفلذات أكبادنا وآبائنا، وكل الأحبة...؟ إذا عاد الحجاج ...علينا أن نهول عليه مهمته "الشريفة" ... فمرحبا بك أيها السكين ...ولا لألف حجاج . 24 ماي1984

في انتظار حصوله على بطاقة مقاوم، كان يشتغل حارسا بلديا بإحدى المقاطعات الحضرية يسهر على إعادة ترتيب الصفوف الطويلة لطالبي شهادات الضعف والسكنى أمام مكتب "السادة المقدمين" .مصادق على مطابقة توقيعه لتوقيعه .لكن اللجنة لم تقرر بعد فيما إذا كان بالفعل مقاوما أم لا.

سألوه مرة عن رئيس خليته فأجاب أنه استشهد، وعمن خلفه فسكت وانتهت المقابلة ...ومرة عن عدد الذين أزهق روحهم من الخونة والمستعمرين فارتبك ولم يجب، ولما أعطوه سلاحا وطلبوا منه تفكيكه وإعادة تركيبه من جديد فعل، لكنه عندما سئل هل ذاك السلاح يشبه السلاح الذي كان يستعمله، ارتبك من جديد وانتهت المقابلة...هل انتهوا من التحقيق معك ...لا ... مازال الفحص الطبي ...لماذا؟ لتقدير نسبة العجز الذي لحق بي ...قالها ونز قميصه.

-لا أذكر متى جئت المدينة الكبيرة ...تهت، لكنني اشتغلت...زمانها كان الشغل موفورا والسكن أيضا في أحياء الصفيح...ورويدا رويدا أحسست بشيء يتكون من داخلي فكرهت الفرنسي الذي شغلني ثم بقية عائلته وأصدقائه، وبعد اتصالي بالإخوان وأداء القسم حقدت على كل الأروبيين بدون استثناء.

كيف جرحت؟ بل قل كيف نجوت؟ ذات يوم جاؤوني قبيل الفجر لاعتقالي .كانوا جميعهم من "السالكان" باستثناء رئيسهم .طلبوا مني أن أدلهم على بعض العناوين ...طاوعتهم وأخذتهم إلى أعماق حي قصديري قريب من البحر .وعند أول فرصة انسلخت من بلغتي وهربت...وأطلقت ساقيا للريح ...أطلقوا علي الرصاص، لكنني لم أسقط رغم غزارة الدم الذي سال من ظهري ...إلى أن وصلت إلى

الشاطئ فاختفيت بجانب صخرة بعدما قلعت ملابسي ورميتها للموج . فراحوا يطلقون عليها ويشتمون...

مرارا أجبت على أسئلتهم التي كانوا يقرؤون من أوراق مضروبة على الآلة الكاتبة وكنت مطالبا عند ذكر أية حادثة أو اسم بذكر أسماء الشهود الأحياء منهم ...وحتى الأموات ..."تمارة وإخلاص".

وبعد إحالتي على التقاعد، أقروا لي بصفة مقاوم، لأقاوم وبعد استقلال البلاد من كذا...سنة، شظف العيش ومحنة البقية الباقية من "الحياة".

هذه صورة من شريط طويل بالأبيض والأسود وقعت أحداثه في مكان ما قبل وبعد استقلال المغرب

... 21 يونيو1984

تِلْك التي حطمت الحواجز

بعد منتصف الليل، دخلت بيوتنا سمراء في لون البحر عند الغروب، تلهت وتتصبب عرقا .كل الأيادي ارتفعت في الهواء، ثم امتدت بحنان وهلع إلى الشاشة الصغيرة، تريد احتضانها وإسنادها، ساعة تأرجحها بين الحلم واليقظة، خفنا أن نكسب الميدالية ونفقد نوال المتوكل...

كنا...وفي انتظار تغلب الصورة المباشرة على اختلال الزمن بين لوس أنجلس ومجموع مدننا، نستعجل توقف» الهارب «عن الدوران بنا عبر ولايات الدولة المضيفة للألعاب الآن، ونستحضر، كل بطريقته، النادر من المعلومات التي جمعناها عنها .بالمناسبة، فاهتماماتنا الرياضية ما تجاوزت عدد الإصابات، وأشهر مسجليها .أما العدو، والعدو المقرن بالنط على الحواجز، فتلك آخر رياضة قد نسهر من أجلها الليلة كاملة...

قالوا إنها من بنات مدينة تغزوها السفن عند المد والجزر، وعند كل منعرجات التاريخ تعطي وجوها تترسخ في ذاكرتنا حقبا لا متناهية ... تعلمت الجري والهروب إلى الأمام على عشب الكازابلانكيز الذي مايزال موشوما بآثار قدميها، وفي هلسنكي تعرفنا عليها ...وفي البيضاء ثانية كسبت ثقتنا..وسلمناها تمثيلية الوطن...

في تلك الساعة من اختلال الليل والنهار بين كاليفورنيا و "مراكش "قطعت خط الوصول ثم ودمعت عيناها ...فليس سهلا أن تجري امرأة في بؤرة أعين الملايين من النظارة، ولا تبكي... ففي تلك اللحظة يحق للمرء أن يتساءل من أين أتى، وكيف أتى، ومن يكون؟ وأمام الشاشة

ضمنا صمت رهيب، وتحاشت أعيننا أن تتقاطع مخافة أن ترى الدمع في بعضها ...ولم تنفرج وتكسوها ابتسامة مجزأة إلا عندما حملوا ذراعها الواهية بعملنا الوطني، الكبير والفضفاض، أمام أنظار الملايين، إذ خفنا أن يطيرا معا في سماء القارة الجديدة. ابْكِ نوال ...فالمرأة التي يخنقونها داخل ضفاف أعراف وقوانين بائدة، من أين يدرون أنها قادرة على أن تكون بطلة لقارتين من المحيط إلى الخليج، ومن المتوسط إلى الرجاء الصالح، وتجلب بالعرق والدموع فرحة نادرة إلى كل المكلومين الذين تسكنهم هموم مستعصية. فحذار أن نذوب الفرحة بكلام جميل ...ثم ننسى الذين قد تسيل دموعهم غدا في "سيول".

1غشت 1984

عِنْدما تتشابه الانفعالات، ويكون من العسير التمييز بين الفرحة الوليدة والحزن المتورم في العيون، ويتساوى الضحك بالآهات، وتتبدل تعبيرات الوجه بسرعة تقلب الأحوال الجوية شتاء، ويفقد الانتظار مللة، ويحضر الماضي بكل سيناريوهاته وأسراره الطريفة والمبكية...عندما يحدث ذلك كله ...دفعة واحدة ... وفي ساحة تحدها شمالا بوابة حديدية قلما تفتح، وغربا مقبرة بصمتها المخيف، وجنوبا مدينة أكبر من حجمها، وشرقا نهر سائب لطالما أهلك الحرث والنسل...عندما يحدث كل ذلك فذلك لأن الآتي أعظم.

القنيطرة مدينة صغيرة، تساكن نهرا غير مؤتمن الضفاف، عند مصبه قلعة أثرية مائلة لا يدخلها الضوء ولا الأخبار إلا بترخيص مسبق، وأمام بوابتها انتظرنا يوما ...يومين ...دهرا .فمتى يجرف النهر القلعة فلا ننتظر بعد اليوم أحدا.

في سكون المقبرة تلك، ننتظر ونحن لا نملك سوى ترجيح ساعة الإفراج على أخرى، وخبر إذاعة فرنسا الدولية نفككه ثم نركبه، ننفيه ثم نتشبث به كمرجع وحيد، لم نفارق البوابة عسى تتململ، وكلما انفتحت تطلعنا إلى ما وراء الممر الطويل بقلوب تلسكوبية إلى أن تغلق، فنعود مضطرين لرفيقنا المولع بالتجسس على الإذاعات الأجنبية نسأله المزيد من التفاصيل حول الخبر الذي هزنا من الرباط للقنيطرة بسرعة جنونية غير آبهين بعلامات "ازرب تعطل" وعند الفجر نعود إلى رباطنا نغالب الصدمة ونشيد عوضها إيمانا عميقا بكون الباقي من مدد الانتظار سوف يكون تاريخيا لا ريب في ذلك...

وخرجوا...مثنى وفرادى ...مثقلين بأمتعتهم كبحارة أبحروا من عشر سنين مضت ثم أرسوا أشرعتهم عند حافة أول يابسة ...اندفعنا نحوهم كأسلاك حلزونية انفلتت من عقالها نتعانق ثم نتباعد كي نغطس في أعماق بعضنا البعض ...وبدل الكلام كنا نضحك، ترى هل كان الضحك أبلغ من "على سلامتكم"؟.

29 غشت 1984

فارِع

الطول كاسمه المتعدد المقاطع والإيحاءات، والذي نادرا ما نطق به أحد أو كتبه لأول مرة دون أن يخطئ، فهو مزيج عشوائي لسبعة عشر حرفا- بعضها مكرر طبعا- نحيف كشعرة معاوية تجده دوما في موقع حرج يحاول شد نقيضين لا أمل في تقاربهما .أما وجهه، فهو تارة دائري كقرص الشمس عند الظهيرة يشع عافية يمتصها شاربه الوحشي والفوضوى الضفاف والذي تنفر منه شعيرات زائغة يتحسسها بلسانه اللولبي الدفاق طوال فصول السنة الأربعة وتارة تضمر عافيته تلك، فيكسو وجهه لون الفجر ساعة تشابه الأشباح بأجناسها فلا تدري أهو مقبل على مرض أم شفي منه، كالعائدين من المنافي الذين يصعب التعرف عليهم للوهلة الأولى.

كان والمدير، لا يفترقان كعلامتي تعجب إحداهما أطول من الأخرى، أملتهما جملة تناقضات كان لابد من حلها ذات نوفمبر .وبعد انتقال الجريدة من جيوب محفظته، ومن غرفة نوم المدير إلى مقرها الحالي، أطمأنا على مستقبل الجريدة، وسار بالإمكان العثور عليه أحيانا وراء مكتبه حيث يبدو من خلفه كعلامة استفهام كبيرة سقط جزؤها السفلي، يكتب إحدى "مباشراته" بمداد لازال دافئا وبخط لم يصنف بعد .سطور مائلة إلى تحت كأنها فقدت إحدى ركائزها، وحروف متنافرة كأن بها عداوة متأصلة، وأحيانا أخرى تجده على عتبة باب مكتب الاشتراكات عيناه على الباب الخارجي، وسمعه وفمه على التليفون يستهلكه بشراهة كأحد أبطال المسلسلات التلفزيونية العربية.

أما إذا افتقدته هنا أو هناك فهو ولربما على وشك الدخول من عاصمة المجاعة السياسية.

ضحكته مميزة، فهي وإن كانت محتشمة لدى انطلاقها، فإنها ورغم محاولاته الإمساك بأبعادها، سرعان ما تتحول إلى قهقهة جنوبية تشكك في ما سمعته أو قلته، فلا تدري أهي لك أو عليك...

بعد اكتظاظ الجريدة بكل "الريفيين" الذين مازالت تضج آذانهم بوقائع أنوال المعركة، سار التمييز بين ضحكة وأخرى أمرا مثيرا للضحك حقا . فمساء كل ثلاثاء والعدد لم يعد بعد، يجتمعون حول مائدة مستطيلة ومترامية الأطراف، يلزمك لضمان وصول لقمتك من مركزها سليمة يد مضاعفة .عشاؤهم جبن، وبدل الزيتون "لبن" يقال إنه مفيد لخفض ارتفاع الضغط الدموي المتولد عن تراكم مواد لم تطبع بعد .وهكذا فبدل الاستعجال لإقفال العدد يتعشون...ويضحكون ...مثل هذا الذي لا تغادر الابتسامة شفتيه حتى في أحلك الظروف، وكأن في "قضايا الناس" من الهمّ ما يضحكهم .تؤرقه إشكالية توحيد الطبقة العاملة، ولهذا تراه يزاول ودون علم الإدارة طبعا مهنتين التحرير و المونطاج ... وهذا الذي قلما هش في وجه أحد رغم محبته القاتلة فيه، تعرت بسمته عند نقطة ما مجهولة فلا هو استرد انشراحه ولا هو انحاز لحالة معينة ما . يرتشف القهوة أكثر مما يتنفس ويدخن نوعا من السجائر لا يغري أحدا . لا زلنا ننتظر موعده مع ذكرى حمامة ليكاتبه عن إتمام العرب خروجهم من التاريخ عبر بوابة بيروت، والمغرب من منظمة تشتيت الأفارقة...ومنهم ذاك الذي اتخذ لمكتبه منزلة بين المنزلتين بحيث يرانا ولا نراه .فقد لذة الضحك منذ زيارة العار، ولم يسترد جزءا منها إلا بعد انتقاله من الحالة الانفرادية القاتلة إلى الحالة الازدواجية...ومنهم ذاك الذي استهوته القضايا المالية فأصبح لضحكته رنين العملة الصعبة النادرة، إذا ضحك تعطلت الأعمال بالجريدة وإذا اعتكف عن الضحك

افتقدناه كافتقادنا لكل العملات...ومنهم تلك التي تصل الجريدة بقرائها بواسطة "ألووو" تضغط على حرف الواو بكل جوارحها وكأنها تخشى أن يسقط منها سهوا .أصابعها مع آلتها الكاتبة معنا، وقلبها مع" 8 مارس"...ومنهم ذاك الذي يقضي يومه بالجريدة وخارجها كالمروحة إذا توقف اختنقنا، يضحك خفية، ولحد كتابة هذه السطور لا زلنا نجهل ما الذي يجعله يضحك جهرا.

أما الوافدان الجديدان...فإلى أن يضحكا من الأعماق نقول لهما فقط ...مرحبا من الأعماق.

22نوفمبر1984

قَالَها ثم فتح ذراعيه فبدأ كشراع غلبتها الريح وسط أمواج عاتية، يحاول التقدم لكنه يتقهقر .رجلاه مترددتان كرجلي صبي في مرحلة الحبو .ولما يئس من مواكبتها لتمايل جسمه تراجع إلى الوراء كمن يحاول الإمساك بلجام حصان جامح، فهو منذ فقد القدرة على الإنصات والحديث معا، دخل في صراع متشنج مع ذاته، لكنه سقط، مال إلى الوراء ثم تراجع كي يسقط سقطة عمودية بعد التواء ركبتيه من ثقل جسمه الذي فقد القدرة على المواجهة .قبل الساعة الصفر بثوان كان قد دخل في غيبوبة لذيذة باستثناء فمه الذي لازال يردد بصوت خافت تتابع كلماته ببطء شديد كمن يوصي بوصيته الأخيرة "سنة سعيدة ...فلا تطفؤوا النور، إن الظلمة فال سيء" .لكن الضوء أطفئ، فبدت نهاية السنة القديمة كبداية السنة الجديدة، ظلمة قاتمة تحتضن فرحة منزعجة تعبر عنها قبلات سريعة لا يدري أحد من أهداها لمن، لولا الشفتين اللتان تحسان بدفء حرارة المشاعر التي لا تحتاج إلى دعم صندوق المقاصة ولا مشروع ميزانية يحدد طرق وكمية تبادلها.

كانت رجلاه تضرب في مؤخرة سنة عجفاء، لفظت أنفاسها الأخيرة وهي تكابد كل أصناف الانتكاسات والخروقات والاختلالات والاختلاسات والمضاربات وتدخل البنك الدولي في الصندوق الوطني و...الخ .أما وجهه فهو غارق في بؤرة من قيئه اللزج المختلط الألوان والذي تفوح منه رائحة حموضة متعفنة من كل الذي تناوله من السنة

الماضية من مواد لا طعم لها، فقدت لذّتها من فرط ما أحيط بدعم أسعارها، من مبررات مرقمة تحرك الأمعاء.

وفي الصباح، كان لازال مسجيا بنجوم أزلية، تحت سماء زرقاء وصافية منذرة بربيع بلا ورود .ومن شدة البرد التوى كسمكة ميتة .مرت به السنة الجديدة وهو يقاوم كوابيس من إرهاصات أحلام السنة الماضية، شعر بجفاف حلقه، فمد يده يتحسس موضعه مخافة أن يكون قد تحول إلى أنبوب معدني، وساعتها تمنى لو أنهارُ الأرض جميعها صبت في فمه . فأبصر مجموعة من الأيادي مدت إليه من جميع الجهات تحاول إنهاضه، لكنه نظر إليهم في ريبة وجزع، وبعدما تأكد من خلوها من أي أداة زجرية، استسلم لها وقد أحس بالحياة تدب في جسمه الرخو، تقدم خطوة فعاوده السقوط وكأن جسمه من معدن ثقيل، وبعد محاولات عدة تمكن من الوقوف نهائيا .حدق في الدائرة التي كان يتوسطها في استغراب ثم اندفع بدون اتجاه معين يعانق المارة والجدران والأشجار، يرتد إلى الوراء ثم يعاود المسير إلى الأمام وهو يردد "سنة سعيدة...سنة سعيدة" دون أن يأبه لذلك الشرطي الذي يلاحقه.

في ذلك الصباح الذي بدأ بغيومه السوداء كامتداد إضافي لليلة طويلة، انتشر الخبر المروع ليشمل أرجاء الحي ويغرقه في جو جنائزي كئيب.

ذهول كبير، وهلع أكبر خيما على الأفئدة في ذلك الصباح الذي لم تشرق شمسه بعد .الكل يمشي في اتجاه واحد إلى حيث يبكي مع كل الذين لم يستطيعوا بعد منع دموعهم، ثم يعود محملا بكمية من التفاصيل المأتمية لا يدري لمن يصرفها، إذ الكل مكلوم.

الكبار يرددون بخشوع استثنائي "ما شاء الله"، والنسوة انتشرن في أزقة الحي يذعن ويلتقطن آخر التفاصيل، ثم يعدن ليتداخلن في بعضهن وهن يهمسن في آذان اللواتي وضعن أيديهن على خدودهن استعدادا للنحيب والصراخ بعد سماعهن للنبأ...

الأطفال يسترجعون صور الأمس، وما قبل الأمس، لكن شريط الصور سرعان ما يتمزق من شدة الألم .هم عاجزون عن الفهم، وعن طرح السؤال المناسب...إذ لا أحد يدري، فالذي كان يدري قد مات!

الأم وحدها كان بإمكانها أن تروي الذي رأت، لكن الصدمة التي لاتزال تتردد أصداؤها في جوف قلبها تعجزها عن صياغة جملة مفيدة واحدة، والأب أيضا وبعدما أجاب عن مئات الأسئلة التي لن تعيد له حتما ابنه، اختفى وراء سحابة من الحزن الذي انضاف على ملامح صرامته المعهودة، فبدا كبركان يغلي بداخله، وتكتفي إشارة واحدة أو همسة كي يقف بقلبه بعيدا، لقد استنفذ كل ما بأعماقه من دموع.

أما أخته التي تناولت معه الشاي لحظات قبل وفاته، فقد انشطر عقلها شرطين، شطر يستحضر صورا حية لهما من الماضي القريب والبعيد

وكأن قصة الحبل الذي شنق طفلا لم يتجاوز سن البراءة مجرد كابوس مفزع، وشطر يصوره جثة مثلجة بماء المطر، وبعنقه ندوب سحيقة من أظافره وهي تحاول فك الحبل ساعة وعيه المتأخر بعبثيه فعله.

وبعد، فقد أضعنا طفلا لطالما شيدنا له ولكل أقرانه عوالم جميلة من الكارطون عاينها لحظة فلم يصدقنا بعدها أبدا .فمن يا ترى يتحمل وزر الإساءة إلى أطفالنا من المهد إلى...؟؟؟

أو ليس لهذا النفق الذي دخلناه من مخرج!!

تُرى في ماذا كان يفكر "الفقير" عْلي ليلة نحره هو وزوجته وأولادهما الثلاثة...أم تراه أقلع من زمان عن عادة التفكير وأدمن على استعراض الذكريات، فتمدد على السرير وحدق في سقف الغرفة محولا إياه إلى شاشة كبيرة يعرض عليها مقاطع من عمره الذي أفناه في ديار "أقصى درجات العزلة" .وللا يامنة؟ ماذا فعلت بعد استضافة ضيفها الغادر، أعاودها التفكير من جديد في جواز السياقة الذي فشلت في الحصول عليه في الدورة الأولى ...أم تراهم جميعا وبعدما " لعنوا الشيطان" ودفنوا الماضي، ناموا كي تلهو بهم الأحلام إلى أن تفاجئهم واحدا واحدا أيادي وحشية تنتمي إلى أبعد عصور الإنسانية ظلامية لتغرقهم عن آخرهم في دمهم الفائر، وتبيد فيهم كل أمل برؤية غد جديد في "ديور الحمر" .الفقير علي، كان من المهاجرين الأوائل، وهو شاب فتي حمل حقيبة صغيرة وهاجر .وبعد إفناء فتوته أدركه التقاعد فعاد إلى الوطن محملا بأحلام كبيرة ...فما أغلى أن ينهي الإنسان حياته في وطنه ويدفن في تربته!!!

-يامنة لم تستسلم للأعداء.وحدها قاومت الذبح. وحدها قاومت غدر ذوي القربى .وحدها رأت المعتديْن، وحدها رأت تفاصيل الجريمة...كيف أتى السكين على بقايا عجوزها، وعلى محمد وإبراهيم وأحمد فلذات كبدها، فما أبشع ما رأت وما أقسى ماتحملت، وقد تكون في لحظات احتضارها تمنت لو بدأ السكين بها لكان أرحم...ثم سقطت، وأصبحوا خمسة ...ترى هل يجوز ضمهم في قبر واحد كما ضمهم بيت واحد في "ديور الحمر" التي كانت نائمة في تلك الساعة بينما حشرجة الموت تملأ بيت الفقير علي الذي أصبح قفرا إلا من

أثاث ملوث بالدم قد يحكي لو سئل، المراحل الصعبة التي قطعتها الأسرة مجتمعة أو متفرقة وهي تكافح على ضفة شارع الكفاح من أجل بقائها خلفا عن سلف.

»قبطوه...قبطوه؟ «...!وأسئلة أخرى مخيفة تهز الأمعاء، تعتصر القلب تشل العقل وتثير الاشمئزاز حتى الغثيان تقابلها أجوبة سطحية "معلوماتية" تحاول الادعاء بالإحاطة بما حدث بناء على ما قيل، وفي دوامة السؤال والجواب، كان الفضول يتحول إلى الخوف والخوف إلى الرعب والرعب إلى حالة استنفار عصبي في درجاته القصوى يثير الهذيان، فليس سهلا أن تباد أسرة بكاملها ولا تتوقف الحياة ولو لحظة كي يستوعي العقل الجماعي ذلك الذي حصل...كيف، ولماذا؟ وإلى متى؟؟ فعلا قبضوا على المجرمين، فهل يا ترى سيقبضون على دواعي الإجرام التي تنمو بين ظهراننا بشكل مخيف...مفزع ومحزن؟

14فبراير 1985

الموظف الطموح

كَانَ موظفا طموحا، قذفته إحدى مدننا النائية إلى العاصمة كي يصبح موظفا صغيرا .كان ذا طموح كبير .لهذا كان أول من يدخل المكتب صباحا كي يتسنى له تحضير دروس الباكالوريا التي كان يهيئها وذلك قبل حضورنا وامتلاء المكاتب بصخبنا، وبعبارات "صباح الخير"، و"كيف أصبحت" اللتان كنا نتبادلها آليا وبضوضاء كبيرة.

كان يمضي يوما، تارة يشغل الآلة الحاسبة وتارة أخرى ينحني على قمطر مكتبه المفتوح دائما، يقرأ الصفحات تلو الصفحات بصوت مسموع، وكلما انفتح الباب فجأة أغلق القمطر ومال على الآلة الحاسبة يعيد إليها الحياة بحماس مبالغ فيه .وكان، كلما عنفه الرئيس، يردد أمامي تهديده المستمر بتركنا يوم ينجح في الحصول على الباكالوريا..."إن أول خطوة سوق أقدم عليها يوم يكتب لي النجاح، هي تقديم استقالتي من هذه الوظيفة الحقيرة، والبحث عن عمل محترم ... ربما اخترت التدريس، فهو الأنسب لي لمتابعة دراستي الجامعية...إن دراسة الحقوق لهي أفيد من دراسة الآداب ...أليس كذلك؟.." .هذا إذ لم يفاجئنا رئيسنا بطلعته المفزعة، فننهال على آليتنا الحاسبتين نشبعهما أرقاما لا أساس لها من الصحة مما كان يجلب علينا غضب الرئيس وصياحه الحاد الذي كان يسمع من المكاتب المجاورة.

وفعلا نجح، قرأنا اسمه في الجريدة التي كانت متداولة بيننا اليوم كله، عانقنا واحدا واحدا باستثناء الرئيس طبعا، وأعوانه، والنساء الموظفات اللواتي تقبل منهن، ومن بعيد تهانئهن الممططة، لم نكن نتصور أن نجاحه ذاك سوف يكون بادرة لموجة ثقافية تجتاحنا جميعا .فقد تأبط

كل منا كتبا ودفاتر، وانطلقنا كل في اتجاه يريد الحصول على شهادة ما لتحسين وضعيته الجامدة، حتى النساء طلقن مؤقتا حياكة "التريكو" وتزوجن اهتمامات ثقافية جديدة.

وبدل أن يقدم استقالته حسب مشروعه القديم، تزوج زميلة له كان يرى يمازحها في الممرات، وكانت هي الأخرى تضرب له خلسة بعضا من دروسه على الآلة الكاتبة، وبعدها التحق بكلية الحقوق ليستأنف حروبه الضارية مع "الشهادة" .وهكذا امتلأ من جديد قمطر مكتبه بكتب أكبر حجما، ومراجع ومخطوطات لا تقرأ إلا بصعوبة.

بعد التحاقه بالكلية، ظهرت عليه تغيرات أخذت تميزه عنا...في لباسه ...في مشيته ...وحتى في ضحكه الذي أصبح متقطعا ...أما لغته فقد أصبحت محشوة بمصطلحات قانونية، وكلمات أجنبية، لم تكن متداولة بيننا بعد، ولهذا بدأنا ننفر من محادثاته، وإشراكه في شؤوننا الخاصة مخافة أن ينتقدها بعصبيته المعهودة.

ومع الأيام، أصبح ظاهرة مألوفة بيننا، يدرس الحقوق بتشنج، ويشغل الآلة الحاسبة التي كانت دائما تعطي نتائج خاطئة،

وهكذا إلى أن تداخلت أعصاب عقله في بعضها البعض، فأخذت تنقل إليه صورا مقلوبة أو لعلها كاريكاتورية مما كان يثير لديه انفجارا من الضحك الهستيري، يتحول بسرعة إلى بكاء حاد .ومن ساعتها أشيع بيننا همسا أن الرجل لربما قد انتهى، لا سيما بعد أن أخذ يرسم على الورق رسوما غريبة، يعلقها على جدران المكتب ثم يقف أمامها طويلا يتأملها ...ويبكي.

11أبريل1985

التقينا أول مرة كنت بطول ذراعي، وبعد محن لا داعي لذكر تفاصيلها الآن، أراك أكبر مني جلدا .فأنت تضحكين رغم كمية الحزن الثقيلة التي تخفين والتي تشكل غيوما كثيفة تغلف قلبك الصغير ...لا الصيف ولا الخريف أجلياها حتى الآن .ضحكة في إشراق شمس أحد صباحاتنا الآتية، تستنهض كل تلك المشاعر الدافئة التي تراجعت قسرا وقبل اندحارها، إلى أعماق دهاليز جوفي ...فلولا وجودك في حياتي، وضحكتك الرقراقة والمتدفقة فوق يابستي لهلكني التصحر.

عِنْدما

وكنت أيضا ترقصين ...مددت لك يدي، فاستبعدتهما ورغم إصراري الشديد، كان إصرارك أقوى، فرقصنا، كل بمفرده .أنا عادة لا أرقص، وإذا حدث وأرغمت على ذلك يكون منظري مضحكا بلا شك .إن جسمي متيبس كجدع شجرة ميته، وليس عند الكبر يتعلم المرء الرقص أو ما شابهه، أليس كذلك؟ أنا أحرك ما كان يجب تجميده .وأجمد ما يجب هزه وزحزحته ...حتى أنت لا ترقصين جيدا ...لا تغضبي، هذه فقط مجرد ملاحظة، فنحن جميعا أسارى متاعبنا وأزماتنا التي تشد برقابنا وأردافنا، فمن أين لنا الوقت والمزاح الكافيان لتعلم شيء يزيل القنوط من حين لآخر...؟

أنت تنطين من هنا لهناك، كفراشة تلهو بها الريح بين الزهور حتى لتكادين تسقطين، فأمد يدي لكن إصرارك أقوى على أن تنهضي لمفردك .انضم إلينا الصبية الآخرون ودون أن أشعر وجدت نفسي وسطكم كعمود مثبت من سنين .وقد فاجأت أحدكم، لن أذكر اسمه الآن يخرج لسانه في اتجاهي...لعله اكتشف إحدى عيوبي...ففي مثل

سني تظهر الشقوق في الجسم، كبناية واكبت أجيالا وزلازل وحان موعد إخلائها ...لا بأس كانت على كل حال أمسية جميلة.

من حين لآخر، وكلما أنهكك النط كنت تلجئين إلى حجر أحدنا، ومنه كنت تتطلعين إلى وجوهنا المسترخية استثناء في ذلك المساء وكل منها يريد اختصار ما تظفر به مشاعره نحوك في ابتسامة ...أو كلمة أو حركة...وحتى معاكسة، لكننا جميعا ارتبكنا، إذ لا أحد منا استطاع تقمص شخصية محسن عيوش بإتقان، فهو الوحيد الذي يملك الموهبة على دحر الرزانة المبكرة التي غزت صباك ويحولها إلى ابتسامة تقهر أعتى الطغاة ...لكنه الآن وراء القضبان لا يكلمنا ولا نكلمه إلا بترخيص مسبق، وكلما تحادثنا ازداد يقينا بأن السجن في حياتنا، كلزوم الفراش في المستشفى عند الآخرين ...كالسفر البعيد، كفراق الأحبة قهرا ...نقطة عبور لابد من اجتيازها في اتجاه غد خال من نقط العبور.

فاضحكي ندى وامرحي...فما أوحش وطنا لا تملأ رحابه قهقهات الأطفال الناعمة، وصخبهم المنعش للأوصال المشلولة، وإلى أن يعود فارسك المغيب هناك، هاك صدري حوليه حديقة أطفال كي نلعب جميعا لعبة بناء المستقبل الجديد.

21 فبراير 1985

بَعْدَ أن تطورت علاقتنا من مجرد علاقة بين زبون من درجة ثانية وجارسون أوتيل من درجة مماثلة، إثر اكتشافنا سويا أننا نحن الاثنان من الجنوب .سألني ذات صباح مشمس، وبطريقة يبدو بها سؤاله وكأنه مجرد استفهام لا غير : "ترى كم يستغرق من الوقت وصول رسالة قادمة من فنلندا؟ فنلندا؟ إلى أكادير؟ ربما ثلاثة أيام ...أسبوع...شهر ...وقد لا تصل أبدا !أجبته وأنا أتساءل مع نفسي عن سر تعلق ابن بلدي هذا المفاجئ ببلاد لا نسمع أخبارها إلا في فصل الشتاء.

وضع فنجان القهوة أمامي وانصرف بدون تعليق إلى زبونين شقراوين من الشمال تغسلان جسديهما بالشمس وتحلمان بالجمال وكتبان الرمال والصور التذكارية.حديقة الأوتيل تعج بهن .يتقلبن فوق العشب الأخضر كأسماك في مقلاة وعيونهن تلمع كالزجاج الملون.

قلت : "أبدا"؟ سألني وهو ذاهب لطاولة أخرى، بدا حزينا، وإن كنت أشك في كونه قد عرف السعادة قط، لونه أسمر، فكيف يكون الإنسان الأسمر عندما يكون سعيدا ...أحمر؟ أزرق؟ أبيض؟ ابتسمت، فتجهم وجهه وكاد يتركني.

توقف...تلعثم..ثم فر بوجهه مني إلى أرجاء الحديقة ...إلى ممر حجري بين العشب منحدر في اتجاه الشاطئ .من مكاننا يبدو الشاطئ كبركة في اتساع الكون ترسو بها سفن قاتمة اللون تبدو كجزر متناثرة ..."هناك كانت تجلس، تقرأ كتابا أو تغطي به وجهها...سألتها إن كانت ترغب في شيء عصير ليمون ..قهوة..بيرة..ابتسمت، وبعد حديث قصير عن

فنلندا وأكادير، سألتني عن اسمي ...بوجمعة، قلت . ولم تستطع النطق بها...حاولت لكنها لم تستطع فحرفتها إلى بوم..بوم !..تمنيت لو طالت محاولاتها..كانت ممتعة محاولاتها ..نبرة صوتها..حركات شفتيها والحروف تنسكب من بينهما متقطعة وبركاكة تثير اللعاب ..كصبي يتعلم النطق.

ما اسمها؟

سألته ثانية وبإلحاح، لكنه قفز مسرعا لتلبية طلب إحدى الطلبات...هكذا هو طوال فترة خدمته، يقفز في هذا الاتجاه وذاك...من طاولة لأخرى...وكلما مر بي استأنفنا حديثنا أو ختمناه بابتسامته التي يكون قد خص بها الأجانب ...لشد ما يسألون هؤلاء الأجانب- قال لي- يسألونك عن الأمكنة الخرافية ...وصحارينا الشاسعة...وقوافل الجمال التي لازال في اعتقادهم أنها تحمل الملح ... وحتى الزواج بأربعة لازال يحيرهم ...كان يجيبهم ...سواء كان يعرف الجواب أو لا يعرف، المهم أن يمكثوا أطول مدة ممكنة وهو يبتسم لهم وكأنهم جميعا ضيوف لديه.

-اسمها "بياتي" ،ومن فنلندا...شمال فرنسا ...أليس كذلك؟ عشنا أياما أنستني كل الذي مضى من عمري أخذت أمتعتها ونزلت في بيتي مع أخي ...أخي عاطل...كانت رقيقة معه...بدون زينة ولا أسلاك .في السنة الماضية كانت بأمريكا ...هل تعلم أن الرجل الأمريكي بارد؟ هذا رأيها فيه .عندما سافرت بكيت ...سوف تبعث لي برسالة ونقود لأسافر إليها كي أبعث بدوري لأخي بنقود كي يلحق بي، هل أسافر بالقطار أم بالطائرة؟ ما رأيك؟ وهل الحصول على جواز السفر سهل؟

الرجل مسافر وقبل أن يضع رجليه في القطار، وقبل أن تصله رسالتها، يتحدث عن شقراء رست بحياته أياما استمعت خلالها إلى أحزانه وأحلامه فشربتها ممزوجة بشمس جنوبنا الحارة، ثم هاجرت مخلفة في

قلبه شرخا كبيرا وذكرى ووعودا، فهل تذكره هي أيضا بهذا الجنون، وهذا التعلق المستميت بالسراب الشمالي قبل أن يتحول إلى جارسون شاعر تخونه الكلمات ويحطم الكؤوس والصحون؟

آمل ذلك

. 10أبريل1986

البديل !

كُنّا نصادفه عند محطة الأتوبيس مثلنا ينتظر، ويشكو من فوضى الأتوبيس بالرغم من أنه لا يستعمله إلا نادرا .فهو بدل الذهاب إلى هذه الإدارة وتلك، يكتفي ببعث الطلبات إليها وانتظار الجواب .لكنه مثلنا يستعمل قدوم الحافلة وينظر إلى ساعة معصمه، ويتخوف على تأخرنا .وأثناء ذلك الانتظار يشارك الموظفين شكاويهم التي لا حصر لها، وبين سيجارة وأخرى يطلق سؤالا أو أثنين في الهواء حول نتيجة مباراة ما قد دخلها، أوعن مواعد أخرى قادمة كي يستعد لها مبكرا، أو عما إذا كان هناك من يعرف وساطة أو على الأقل الخيط الرفيع والسري الذي يقود إليها...ومهما كان الثمن!

كان همه الأساسي أن يتوظف وما عدا ذلك فهو مجرد تمطيط قس ري لهذا الانتظار الذي طال أمده حتى أصبح مصيره النهائي..." ما عندي زهر!!" ...هكذا يعلق بين نتيجة وأخرى .لكنه وما أن يسمع بإجراء مباراة ما حتى يتحول إلى رجل مكوكي سريع يتنقل بخفة بين المقاطعة ودار الضريبة ومكتب التجنيد يجمع الأوراق الضرورية ...ثم ينتظر، ويترقب النتيجة عند محطة الأتوبيس ...وهكذا إلى أن اختفى عن الأنظار .جرت بعد ذلك عدة مباريات لكن المحطة خلت من حضوره، بمشيته اللولبية حيث يجر نصفه الأيسر نصفه الآخر في اتجاه بدون هدف...هنا كهناك...الآن كبعد شهر...سنة!!...

ثم التقينا ثانية، وفي الحمام.

أول ما يصدمك عند مدخل الحمام، هو صاحب الصندوق، لكأنه من صنع الخيال، جثة هلامية على قامة مضغوطة، على وجه يتشكل حسب

درجة انفعاله، يداه أسمن من فخديه إذا رفعهما لتناول رزمة ملابس أحد الزبناء بدتا كجدعي شجرتين ميتتين لا يترك صندوقه حتى ولو تهدم على رأسه الحمام، يلف رأسه بشريط وسخ به بقع بيضاء لا هو "رزة" ولا هو ضمادة .طوال الخدمة وهو يتلذذ بعد وترتيب قطع النقود المعدنية ... الفضية على يمينه ..النحاسية على يساره .صوته أخشن من صوت »شيخة «ثملة أدركها الصباح.

-هل معك الصرف

-ادخل...السّطولة لْداخل...

وتدخل...عالم أسطوري شبيه بالعوالم التي ورد ذكرها في أسفار الرحالة القدماء، سحب كثيفة من بخار الماء تلف أناسا عراة وحفاة في أوضاع بهلوانية أعلنوا الحرب على أعضائهم...حكا ...سلخا...كأنهم يحاولون مسح آثار صباغة من على سطح حديدي والبعض يحاول إعادة مرونة الشباب لعضلات ميتة ارتخت أليافها وتفككت...الأول يضغط بسادية مفرطة، والآخر يردد بلذة غريبة "الله يرحم والديك" وطفل يمرح في مجرى المياه وهو فاغر فاه في عورة عجوز وقور منحن يجر سطلا ليتوضأ ...وشاب مفتول العضلات يصرخ في ثقب أسود في حائط صهريج الماء وكأنه يخاطب أحد معارفه في العالم الآخر» ...اطلق السّخُون الماء يجري عبر أجساد ممددة تستلذ بسخونة أرضية الحمام وتحلم بأشياء من إيحاء الصهد.

ابتسم لي، فعرفته، وبعد الانتهاء من زبون على وشك الموت، دنا مني، وكأننا على اتفاق مسبق، أخرج حجرة صغيرة من إناء أزرق ثم تناولني بين يديه...وكأنه يعالج رأس خروف مذبوح، بعد ذلك وضع إحدى قدميه تحت إبطي وأخط يضيف أبعادا جديدة لأعضائي ...أنا أصرخ وهو يبصبص ...ثم يبصبص !!كأي كسال محترف، وكأنني رضيع تحاول أمي انتزاع ابتسامة من دموعه...لكم أنت وسخ- قال لي وهو منصرف لمعالجة زبون آخر ممدد على بطنه كجثة رمى بها البحر.

لم أسأله عن مهنته الجديدة ولم يسألني بدوره عن متاعبي القديمة ولا حتى الجديدة، فكل ما دار بيننا من حديث هو ما يدور عادة بين زبون وسخ وكسال أنظف من... الصابون...ومن صاحب الصندوق

إذ ما فائدة الأسئلة والأجوبة التي لا تعطي بديلا

.

8ماي1986

فنمت"؟

عَدَلْتَ أم تراهم عدلوا مسارك فتوسدت معقل مركب ركب البحر وهاجر...ثم نمت؟ لست أدري .وأنا الآن أتساءل عن أيكما، وفي اللحظة الأخيرة، تخلى عنه الآخر، أنت؟ أم هو؟ وإن كنت أعلم أن ما بين البحارة ومراكبها شيئا من الذي لا يعلم.

وراءك نهر عند مصبه...عند نقطة يحار المرء أي منهما يصب في الآخر...البحر أم النهر؟ الماء طعمه مالح، لكن متى كانت إضافة الملح للماء تحول من مجرى الأنهار؟

سلا تسندك والرباط تواجهك ...مدينتان في حجم مدينة واحدة، طوال النهار وهما تتجاذبان وتتنافران في اتجاهين متناقضين ...كضرتين مرغمتين على التساكن، ومعهما يتسع مدى هموم الرباطي والسلاوي . وفي الليل تستقلان عن بعضهما وتنفصلان ويبيت النهر لوحده يعكس أضواءهما إلى أن يفاجئه طلوع الشمس، فيتحول عنهما إليهما...يصعد إليها وتنزل إليه.

لكن ما شأنك أنت بكل هذا الهذيان؟ ما شأنك بمدينتين ليست لك بأي منهما ولا وسادة يستريح فوقها رأسك المحملة ألف افتراض وافتراض .ولهذا فأنت الآن نائم...ممدد بين اليابسة والماء...والنائم ميت إلى أن يدركه الصباح...لكن الصباح غير وارد...فنحن الآن ساعة الظهيرة، وأمامنا زوال مال أطوله ...وليل ما أغمضه ...وإن كنت أرى أنك في حالة من لا ينتظر لا هذا ولا ذاك.

أنت ولا شك تقتل الوقت الذي قتلك...فالوقت الذي يصرفنا ولا نملك أسباب صرفه بدورنا، عادة ما نقتله...نوما نحلم بالذي فات أو الذي

سيأتي أو هروبا من الذي نحن فيه .لكن أزعج الأحلام هي ولا شك تلك التي يراد بها نفي الأزمنة الثلاثة ...وتلك مغامرة ما رامها مغامر إلا وهلك.

ما عليك ...فعما قليل يركب المد الجزر، ويتضخم النهر ...وتغمر المياه المالحة جسمك، فتنتفض، وتضحك على الذي صار بك وتستأنف جريك اليومي وراء الخبز المالح...

أو ليس بالملح تطرد الأرواح الشريرة...ونتعاهد على الوفاء لبعضنا؟

22 ماي 1986

الزيادة أم الانتقال أم...

أَسْأَلُ عن الزيادة، هل طبقت على الراتب الأساسي أم الراتب الإجمالي أم هما معا؟...أم ماذا...

-كفى من "أم" قلت له، إن الموضوع لا يحتمل أكثر من "أم" واحدة .يبدو أن الرجل لا يعي ما يقول، وقد يكون لا يتقاضى أي أجر ما ومن أية جهة، فحالته الحالية، توحي بشيء من هذا القبيل .وقد يكون جاء لمجرد جس نبضي حول هذا الموضوع الذي نسيته كما تناساه المسؤولون.

-أين تشتغل؟

-أنا معلم بالابتدائي، أدرس في إحدى البوادي النائية...لا تصلها الطريق المعبدة ولا الكهرباء ولا الماء الصالح للشرب ولا الهاتف ... حتى الطاكسي لا...

-والإرسال التلفزيوني؟

-الإذاعي فقط

-وهل هي مسكونة على الأقل؟ وبها أطفال؟

-قلت لك أنا معلم ها هي ذي شهادة الالتزامات قديمة ...لقد طلبت مرارا الانتقال إلى مدينتي الأصلية، وفي كل مرة يدعون أنهم لم يتوصلوا بطلبي..فكل صباح أجري لأخذ طاكسي مفكك يتوقف أكثر مما يسير إلى سوق أسبوعي لا يؤمه الناس إلا لشراء اللحم، ومنه أضطر للمشي على الأقدام مسافة طويلة نسبيا، عبر طريق ملتوية تجوبها دوريات الكلاب الضالة والجائعة، هذا إذا لم يجد علي أحد من آباء التلاميذ بحمار مزاجي، إما يركض فأضطر لتركه قبل أن يتركني في حفرة أو يتسمر في مكانه يتأمل جمال الطبيعة فأضطر لتركه حتى لا أتأخر عن

القسم فيهرب التلاميذ مشيعين أن اليوم يوم عطلة...أنا كرهت البادية ولو بهوائها النقي، ولحم دجاجها، وحليب أبقارها ...وزقزقة طيورها وطيبوبة أهلها الزائدة عن الحد والتي تستفز أعصابي...أنا.

-وماذا تريد الآن، الزيادة أم الانتقال؟

-هما معا

-هنا، لا نبت إلا فيما يتعلق بالأجور.

-الزيادة إذن.

-أيهما، الأولى أم الثانية؟

-وهل هناك زيادتان؟

-لا، واحدة فقط،

-أنا لم أتوصل بها.

-الأولى أم الثانية؟

أنا لم أتوصل بأية زيادة على الإطلاق، ثم لماذا تقتطعون من أجرتي في كل مرة مبالغ لا أعرف سببها وكأنها جبل من المال...ولست مشتركا في أية تعاضدية سواء أكانت للعلاج أم للسكن أو حتى للتموين...فأنا فقط مللت من استعمال الطاكسي إلى...

-تعال يوم الجمعة...فهو يوم الاستقبالات.

كان وكلما زارنا، جلب معه إلينا الجديد من الارتباك إلى حياتنا اليومية ومرحا يتردد صداه ما بعد توديعه، هذا بالإضافة إلى زوج من الدجاج وقنينات بها سمن أو زيت أو خليط بني من صنع زوجته...هذا كان في سنوات الخصب.

سمرنا معه، كان يطول في استعراض أحوال قائمة من أسماء الأحباب...الأحياء منهم على الخصوص، أما الأموات منهم فتكون أمسيتنا تلك مناسبة جديدة للترحم عليهم من جديد .مواضيعه كلها تدور حول المشاكل المعلقة والمتعلقة في أغلبها بالأرض ونزاعاتهم حول حدودها أو ملكيتها...تارة فيما بينهم وأخرى بينهم وشيوخ السلطة .أما البهائم والأولاد وأحوال الطقس فتلك كانت من المواضيع الطريفة التي كنا نتطرق إليها أثناء الأكل.

أحيانا وحتى لا ندع له فرصة لجعلنا طرفا في نزاع ما نشب حول الأرض بين أناس لا نعرفهم ولأسباب هي الأخرى نجهلها، كنا نحثه على مشاهدة برامج التلفزة كي ينام مباشرة ليتأتى لنا بدورنا النوم نحن الآخرين، ذلك أن حديثه عن الأرض بمشاكلها كلها حديث متشعب ولا نهاية له تسمعه فتخال أنه يتحدث عن إنسان حي له عروق وقلب ويحيا ويموت...حديث لا أثر فيه للأرقام التوبوغرافية ولا الطبقات الجيولوجية، وإنما هو كلام مشبع برائحة التراب وروث البهائم وأصوات الحيوانات الأليفة والضالة وحشرجة محراث خشبي يتعثر خلف حمارين منهكين...يحاول الوصول إلى قلب الأرض لكنها تصده...كمعشوقة لها أكثر من عشيق.

إذا تصادف وجوده معنا وموسم الأمطار، وجدنا صعوبة في التفاهم معه أو الاستماع لأشعاره الموغلة في خضرة الطبيعة، وانسياب السواقي، وأمواج الوحل وعطاء الأبقار والأعراس المرتقبة في الصيف...هذا إذا لم تأخذه ذاكرته بعيدا إلى الماضي السحيق يصف لنا كيف كانت مواسم الأمطار الحقيقية التي زامنها والتي تختلف كلية عن هذه "الملمترات التي يكذبون بها علينا"، ومن هول ما يحكي تشعر به وكأنه عاصر نشأة الكون الأولى .لكننا كنا نستحسن منه ذلك حتى لا يأخذنا من جديد إلى فصول الجفاف التي كابدها، وذلك تفاديا لجو الكآبة التي تصاحب عادة هذا الموضوع.

ومع مرور الفصول والأعوام أصبحنا نعامله بجدية واهتمام. فقد دخلت لغته مفردات عصرية ومتداولة...لقد أصبح خبيرا بأنواع الجرارات والمحركات وتقلب أثمنة المازوت وحتى خصائص بعض أنواع البطاريات ...هذه المستجدات التي تعلمها ولاشك من الذين يشتغلون في الضيعات المجاورة .أما لغة القانون وأسماء المحامين وتدرج المحاكم، فهي أمور يعيشها يوميا بحكم تفرغه للتقاضي من أجل بقعة أرضه التي يقول إن أحد الأقوياء استولى عليها ظلما وعدوانا أيام الجفاف...أيام تحالفت الطبيعة مع جشع إنسان المدينة "لتعريتنا".

وفي آخر زيارة له للمدينة، شوهد في ساحة كبيرة قرب محطة الحافلات يروح ويجيء كمن يقيس أبعاد مساحة أرض يتوهمها...يقود محراثا وهميا ويلوح بيديه على حمارين خياليين .كان يحرث الشارع المسفلت الذي غمرته مياه الأمطار ثم يعود أدراجه يحصد الهواء البارد.

وكان لزاما علينا أن نأخذه إلى أحد المستشفيات العقلية أو نعيد إليه أرضه.

مقايضة صعبة...لكنها حتمية

20 فبراير 1986

سأَل الطفل جده :أين أضعت أصابع يدك .هل أكلها الفأر كما فعل بسني أم خالفت أنت أيضا أمك ومارست لعبة محظورة...؟؟

ضحك الجد من أعماقه المهترئة إلى أن غلبه السعال اللعين، فأعاد تسوية قعدته يتهيأ للجواب، لكن الطفل نسي السؤال وانصرف عن جده إلى ورقة اقتطعها من دفتر سائب يملأ فراغات رسم هو عبارة عن خطوط ودوائر متداخلة.

قال الجد، كمن يخاطب نفسه ...لكم خالفت أمي...كانت المسكينة تريدني فلاحا كبقية إخوتي، لكنني...فقاطعه الطفل بصخبه المعهود وهو يشير إلى الورقة في يده...انظر...انظر...يا مصطنعة ما أنجزته أنامل الصبي على الورقة، قاطعه من جديد ...وهل سال الدم من يدك ... هل بكيت...هل آخذوك إلى المستشفى...وهل حقنوك في فخدك كما فعلوا بي يوم أخذتني إليهم؟؟

-نعم يا ولدي ..لقد حصل ذلك وأنا في غيبوبة تامة ...أي نائم.

-لماذا؟

-تلك قصة طويلة...حدثت قبل مجيئك،

-أين كنت...في الروض؟

-لا لا لا...أعني أنك لم تولد بعد...ولا حتى أبوك.

-لماذا؟

أعاد الجد الورقة لحفيده، ثم مد يده المبتورة من أصابعها فوق رأس الطفل المسندة فوق حجره، يداعب شعرها بوتيرة رتيبة وكأنه يؤدي لحنا كئيبا.

-إن يدك مخيفة يا جدي ..ألا يمكنك تعويض أصابعها المفقودة بأخرى بدلها، كما فعلت مؤخرا بأسنانك؟

وصمت الجد، بينما الطفل يتحسس موضع الأصابع المبتورة إلى أن أدركه النوم ورأسه على راحة اليد المبتورة الأصابع، فيما كان الجد ساهما احتوته رحلة بعيدة نحو ماضيه...وفجأة امتلأت أذنيه بأزيز آلة غزل النسيج وهي تطوي الخيوط الصوفية الرفيعة..كل شيء على ما يرام..العمال ملتحمون بآلاتهم..المدير بابتسامته الجافة في جولته التفقدية في ذلك اليوم يبدو كمنبوذ يتحاشاه كل الذين يمر بهم...وفجأة يصرخ "باعلي"...العمال يركضون إليه...هو أيضا يحاول أن يركض في اتجاه ما... لكن الآلة تشده إليها بعنف...وعندما يفتح عينيه...يراهم حوله، يبتسمون..بصعوبة يبتسمون، فيشجعهم بابتسامة واهية، وعندما حاول مصافحتهم، اكتشف أن يده مشدودة إلى السرير.

تعويضا...التعويضات...كان يرددها وهو يضغط على رأس الطفل إلى أن أيقظه.

_ماذا؟ تساءل الطفل مفزوعا.

_أو لم تسألني عن التعويض؟ لقد عوضوني فعلا عنها.

_وأين هي إذن؟

_نصف درهم في اليوم، أتقاضاها عند نهاية كل ثلاثة أشهر.

لَم تعرف عليه إلا منذ سنة، تقريبا، لكنني كنت أتصوره من خلال حكايات أحد الرفاق في" القلعة الملعونة "بالقنيطرة ... الصورة التي كونتها عنه من خلال ذكريات العربي حسنة...لكن بقيت غائمة...

بعد التحاقي بأنوال...أخذت أتعرف عليه تدريجيا..عرفته في البداية كمصور للجريدة...ثم جاءت المفاجأة الأولى : مقتصد مسؤول المالية...ثم الثانية : علمنا باندهاش أن أعماله تلك تطوعية...وأن عمله الرسمي يتعلق بمهام حسابية ومالية في إحدى الوزارات...

لذلك ربما نحب مشاكسته كلما رأيناه حاملا لآلة التصوير، ولست أدري لماذا يبدو لي حزينا مهموما وهو يستعمل آلة التصوير...إلى درجة الألم أحيانا...وخاصة عندما يطلب منه أخذ صورة شخصية أو تذكارية...وحدث أن فر من إحدى المناسبات تاركا الكل يبحث عنه...

لكن يبدو لي أكثر حزنا وشقاء وراء الحاسوب الصغير...وأمام الفواتير...سألته عن ذلك ذات مرة" ...هذا العمل أقوم به أكثر من ست عشرة سنة...وأكرهه أكثر فأكثر."...

وأخيرا اكتشفت أنه يكون سعيدا ومرتاحا عندما يلتقط صورا...ليس بآلته اليابانية، بل بعينيه اليابانيتين...وهنا لا يكتفي باللونين الأسود والأبيض – بغرض الاقتصار كما يصور للجريدة – بل يتعمق في التلاوين...ويتوغل في أعماق نفوس الناس...وفي ثنايا همومهم ومعاناتهم...ويجد راحته في اقتسام مشاكلهم...وفي الانعزال في أخر

الليل ليخرج بذكاء على الورق – بدون تحميض ولا آلات – الصور التي التقطها قلبه...

بقدر ما نشاكس ذلك المصور باللونين، والمقتصد المتقشف، نحب مجالسة الإنسان المرح صديق أطفاله ذي الضحكات الطفولية ...الإنسان الساخر الذي يحب الشعر أكثر من أي شيء أخر ...لا الشعر المكتوب فحسب، بل وشعر الحياة والناس والهموم والمكابدة...ونحِنّ إلى معاشرة المقتصد الذي ينفق كل ما في جيبه من أجل لحظة حميمة وجميلة مع الأصدقاء...

27 فبراير 1986

اللَّيْلُ

يحاصر المدينة وأهلها الدين التجأوا إلى بيوتهم كجيوش تراجعت إلى خنادقها في انتظار خرق جديد لوقف إطلاق النار

كانت تفرقع اللبان بآلية وصخب، وهي تحيك" ملاية "لمولودها المرتقب .ومن حين لآخر تسأله رأيه فيما أنجزته...السفودان بين يديها يتلامسان بسرعة وكأنهما بين يدي لاعبين غير منظورين في مباراة للمسايفة.

كان يتظاهر بقراءة مقالة عن الشغل، بينما هو غرق بين السطور يقرأ أشياء غير مرئية . وبعد فوات الأوان تذكر أنها كانت قد سألته رأيه.

_نعم؟...آه...مزيان...جميل...

لقد نامت وتركتك وحيدا في الظلام... والليل طويل، كطريق صحراوية تخترق كثبانا رملية في اتجاه كثبان رملية أخرى لا حصر لها .يجتذبك سراب كي يسلمك لسراب آخر، وفي النهاية تكتشف أنك لم تبارح منطقة الوهم.

ومع امتداد الليل تحس باتساع العالم حولك، حتى أن الغرفة تكتسي أبعادا مغايرة ويبدو أثاثها كمجرد علامات في طريق محفوظة المسالك، وبداخلك تتكون ألغام من الأسئلة تكاد تنفجر في وجهك وأنت عاجز عن الهرب وعن إبطال مفعولها.

ألا تنام...أو تطفئ النور على الأقل؟ قالت له لحظة تغيير شريط أحلامها بآخر.

صحيح، لقد نسيت أن تطفئ النور، لكن الرؤيا في الظلام متعبة، تفتح عينيك عن آخرها فلا ترى سوى ما بأعماقك، ذلك الشيء الذي ينتعش

في الظلام...يتجسد ... تكاد تحس بأنفاسه ولمسه حين يطفو إلى سطحك...وتهرب ...تجر الغطاء على وجهك...تغمرك رائحة جسدك...تشعر ببرودة قدميك وتقلصهما، وبانفعال صامت تبعد الغطاء، وتتقلب تحته بحثا عن الجانب الملائم لاصطياد النوم ...الأيمن...على الظهر...الأيسر ...أم على البطن؟ وبعد إكمال الدائرة على حلقات منقطعة تترك الفراش لتتناول كوبا من الماء .جرعة وتبصقها – طعم ماء الصنبور كالدواء الفاسد- وتعود مرغما إلى الفراش تشعل سيجارة...تتأمل اللهب يلتهم عود الكبريت إلى أن يصل لأصبعيك فتلقي به بعيدا وتبحث عن آخر.

من بعيد تصلك أصوات متنوعة...المظهر الوحيد لاستمرار الحياة حواليك .أصوات مضخمة...صافية وكأنها نابعة من أعماقك...رضيع يطلب ثدي أمه بإلحاح...سكير يثقب الجدران كل مرة بمفتاح مغاير في محاولة للعثور على باب بيته...شبان يقصرون الليل كي يناموا النهار بمطاردة بعضهم البعض للإفلات من مطاردة" لاراف "لهم...كلب خائف يغالب خوفه بالنباح المتواصل، إلى أن ترد عليه كلاب أخرى، فيشعر بأنه ليس الكلب الوحيد في هذا الظلام...قطة تموء بأنين، وتتساءل أنت بفضول زائد...أذلك من فرط اللذة أم لطلبها...وتجيبك قطط أخرى من حولها بشن حرب أهلية على بعضها محدثة أصواتا شبيهة بأصوات طائرات تمزق حاجز الصوت...وتبتسم...وحدك في الظلام...كجن يتفرج على عورة عجوز في الحمام.

ابتسامة ممططة شيئا ما .فالليل أطول.تخرج القرار الذي توصلت به صبيحة الأمس بعد قراءته...يثيرك التوقيع أسفل الورقة...فهو يشبه رسما مذابا في الماء...وقد يكون أنجز بفزع...أو باستهتار...أو بهما معا . القرار مؤرخ من أسبوعين...كأنهم يستعجلون التخلص منك...أو ...وعن حسن نية يخشون ألا تتوصل به في الوقت المناسب .وتستمر في

التشبث بمنصبك...منصبك...ومرة أخرى تبتسم...سوف يتسع فمك الليلة من فرط الابتسام...

الوجع...حاد... هنا...أظن...كانت تشير الى أمكنة مختلفة من جسمها وهي تصرخ...

تستمر أنت في التنقيب في محتويات القرار – فوجعها استمر أسبوعين، ومن أسبوع كانت تظن – تبحث عن ثغرة ما... في الصياغة...أما المضمون والنتائج...ثم تطويه بآلية وأنت تستعرض محطات عمرك...الامتحانات...التعيين...الزواج والتشطيب...وتثيرك كلمة تشطيب...أليست هناك كلمة أخرى أليق...أقل خدشا للمستقبل...ولو بعد إلغائه.

الطاكسي...هل طلب الطاكسي؟

وأين أجده هو الآخر؟

بِتلكّؤ بطيء تستيقظ المدينة هذا الصباح، أشعة الشمس تحاول عبثا اختراق حجب الضباب التي تلف الأبنية الغارقة في سبات عميق، معالم الحياة نادرة إلا ما كان منها في وجوه الذين أرغموا على خوض غمار الشارع مبكرا .يتنقلون بتردد كبير كمرضى في طريقهم لأخذ "الشوكة" اليومية، وجوههم قديمة وباهتة وكأنهم خرجوا للتو من أرشيف مغبر.

النهار طويل، وعلى مداره تغير المدينة دورتها المرة تلو الأخرى.

عند منتصف النهار، تتململ الجفون التي أغمضت على نغمات »الطبال...«تكتشف حواليها، تحدق في الساعة ثم تغلق ثانية في انتظار غروب آخر للشمس .وبعد محاولات متكررة، تتحرك الدورة الأخرى...ويمشي الجميع في اتجاه واحد.

التموين..كيس البلاستيك يتأرجح في اليد، لونه أسود، وذلك لربما حفاظا على سرية المؤونة..الأسعار معلقة حسب التوجيهات، البعض يستسلم لجشعها ساخطا، والبعض الآخر يتحول عنها إلى لعابه يحاول إيقاف إفرازه...يمتصه، لكنه سرعان ما يتذكر، فيبصقه بسرعة وباشمئزاز.

عند العصر، يتمدد النهار أكثر، ويحول إلى فترة انتظار طويلة ومملة، المقاهي وضعت الكراسي فوق الطاولات وكأنها تخدم زبناء من كوكب آخر في وضع مقلوب...وإذن فالجلوس ممنوع... وفنجان القهوة وتصفح الجريدة بالمجان معلقان...وإذن فلا مفر من الاحتكاك بالآخر...لكن بحذر وكياسة، فغياب السيجارة من الرأس كانعدام صمام الأمان في قنبلة شديدة الانفجار.

الكل هائم...بوصلته شهوة مضغوطة تقوده كإعصار عنيف نحو المعروضات، لكن الجيوب وحدها تقاوم...وحدها تقاوم لحد التمزق...فهي الوحيدة التي تدرك أن الأسعار المتلفزة هي فقط مجرد لقطات خارجية لفلم وثائقي خاص بالسواح الأجانب ...ثم ما الفرق بين أن يكون التمر عراقيا أو تونسيا إذا كان تمر تافيلالت القريبة أبعد من متناول اليد.

فجأة، تسكت المدينة ...تجمد، حركة جنونية سريعة نحو الأطراف...ثم صمت مخيف، المدينة تبدو عند الغروب كمشروع سكني ضخم لم توزع بعد مفاتيحه ...كماكيت لمدينة سحرية تسبح وسط سحب كثيفة من الروائح المتشابهة...هذا راجل متأخر يجري ويقضم من مقضيته...هذه سيارة شرطة مأمونة...هذا متسول التصقت شفتاه بحاشية »زلافة «مصدق بها عليه عند عتبة باب بيت...يشرب ويتأمل فضاء المدينة العريض، هدا الفضاء الذي يضيف إلى عزلته أبعادا لا متناهية من الغربة لا يخففها عنه سوى توافد الأطفال المطرودين عليه من حضرة الكبار...يدورون حوله...فيتملكه الخوف من قلب

"زلافته" الوحيدة.

الزلافة الأولى...الفنجان الأول...السيجارة الأولى ...ثم تنتعش الروح التي كادت تفارق البدن، يسبقها دوران خفيف، ولذيذ...ثم تنحل الأحزمة ثم الزلافة الثانية...ثم يضيق البيت بمن فيه ويتسع الشارع الكبير للجميع دفعة واحدة ...بلا توازن وبلا مقاييس حركة دائبة ... صعودا هبوطا نحو الأطراف...

التجمعات ...نحو الزوايا ...حرك لاستدراك الحركة المعطلة طوال النهار، التزود بالوجوه المألوفة التي كان يصعب التعرف عليها وسط النهار ...الوجوه استعادت طلاءها الاعتيادي تتشبث بالليل كأنه الليلة الأخيرة، تمدده إلى أقصى حد كي يقصر النهار وتخف وطأته، العيون

تحدق في العيون، كأنها تودع بعضها ...كأنها تتعرف إلى بعضها ... الشفاه حمراء تتذكر أطراف ما حدث وتبتسم أو تتمسك بسيجارة ملتهبة كعلامة مميزة على امتداد غروب الشمس.

ولأول مرة تغرب الشمس ولا تجد من يودعها.

أرْبعَةٌ

وأربعون عاما من الخدمة ارتقى خلالها أعلى درجات السلم الثالث...أحيل على التقاعد .قرأ علينا بصوت منفعل نص القرار ثم طواه وأضافه إلى بقية الأوراق الأخرى التي تتضمنها محفظته الصغيرة .عند نهاية الشهر، جمع أشياءه واكتفى بتوديع من صادفه من في ممرات البناية الكبيرة ثم مضى يجر إحدى رجليه المعطوبة على أرضية الممرات والسلم وكأنه يمسح بقايا آثاره بيننا. فنسيناه...بسرعة مذهلة نسيناه، وكأننا سمعنا بوجوده فقط دون أن نكون قد عاشرناه عمرا طويلا .أغلبنا وجوده أمامهم كبقية الموجودات التي يصطدم بها الموظف الجديد يوم التحاقه بالعمل أول مرة .تدخل مكتبه بلا استئذان وتتركه وقد زودت بكل أسرار عالمك المقبل .فقد كان يشغل منصبا حساسا .يقضي يومه في تقليب سجلات كبيرة يرصد عليها ذهاب وإياب المراسلات الإدارية بعد أن يضيف إليها أرقام وتواريخ حركتها مشفوعة بطابع الرئيس طبعا .ولربما هذا ما يفسر قوة ذاكرته وحفظه الاستثنائي للكثير من الأسماء والتفاصيل!! وبسرعة مذهلة تذكرناه...ربما كنا قد احتجنا إلى رقم ما أو تاريخ ما، فنادينا عليه وكأنه لازال بيننا .أو لم يكن مرجعنا الوحيد في الكثير من شؤوننا؟ تذكرنا جلسته المميزة وراء مكتبه يتدرب على تقليد توقيع الرئيس أو يمضغ مؤخرة قلم جاف ريثما يتذكر مرجعا ما، وعلى رأسه طربوش من نوع طرابيش فجر الاستقلال مائلا كل يوم في اتجاه كحجرة علامة فوق أرض متنازع بشأنها ووراءه موقد كهرائي صغير فوقه إبريق الشاي، وفي قمطر مكتبه خبز وزيتون أسود يخفيهما حالما يفاجئه أحدنا .فقد كنا نتناوب لتناول الشاي معه في مكتبه والاستمتاع بحكاياته المكررة عن غرامياته الماضية أيام كان الحب والمرأة من النوادر الغالية.

تذكرناه، فتبادلنا لوم بعضنا البعض عن عدم توديعنا لن، وبدون أن نتفق جماعيا قررنا إقامة حفل صغير على شرفه كما يقام عادة للكبار عند تعيينهم أو توديعهم .احتجزنا ثلاثة مكاتب، نثرنا عليها باقات من الورود وصحونا من الورق بها حلوى إلى جانب زجاجات المشروبات .يوم الاحتفال ألقى أحدنا، وبتلعثم شديد، خطبة مؤثرة ضمنها كل معاريفه من اللغة العربية الفصحى فجاءت كدبلجة لفلم هندي، مما جعلنا نكتم بعناء شديد ضحكنا.

وبكى الرجل، دمعات في أول الأمر انسكبت فوق ثنايا خديه، ومع تلعثم الخطيب وتوقفه المكرر عند مناقب الرجل وإهمال الإدارة لموظفيها الصغار، يوم يأتون ويوم يذهبون، انفجر الرجل باكيا بصوت مرتفع حول الحفل الصغير إلى مأتم كبير.

تُرى ما الذي أبكى الرجل؟؟؟

عَادَت إلى البيت .رمت بحقيبة اليد بعيدا، وخلعت جلابتها، وحذاءها ثم توجهت إلى المطبخ ...مجرد إطلالة ...فمن يدري، ربما سبقني ...تساءلت مع نفسها .لكنها وجدته لازال نظيفا ومرتبا وكأنه لم يستعمل من مدة طويلة .فتحت باب الثلاجة فاشتعل المصباح على الرفوف الحديدية الفارغة سوى من صحنين بأحدهما آثار زبدة، وبالثاني حبات زيتون تيبست .باب الثلاجة محمل بزجاجات الماء، ملأت كأسا وشربت نصفه ثم أغلقت الثلاجة... الماء المثلج يضر بالأمعاء...كالجوع تماما وببطء شديد أدارت رأسها في أرجاء المطبخ...لا دخان ولا رائحة .همت بإشعال الفرن، لكنها تراجعت... فماذا عساي أطبخ، هناك ملح...ورؤوس ثوم...وبصل...قنينة الزيت ممددة أفقيا دون أن تنسكب منها القطرات التي تحتويها .والخبز؟ إن خبز السوق يذوب كالصابون، ولا داعي إذن للبحث عن فتاته.

وبعصبية أعادت ارتداء جلابتها ثم اتجهت بخطى سريعة إلى البقال، وبدون أن تهتم بالذين أمامها، صرخت من وراء ظهورهم في وجهه:

-أعطني علبتي سردين وبيضتين وخبزة...وقيدهم الله يخليك بسرعة فسوف أتأخر.

ابتسم لها البقال .دائما يهش لمقدمها البقال، ولا ترد عليه، فهو يبدو لها عبارة عن خليط من الزيت والطحين بلا ملح .انتقلت الابتسامة إلى مساعده الصغير، فتبادلا عبارات بلهجة لم تفهمها ثم تركاها لخدمة الذين سبقوها ."ترى من أين جاء بهذا المساعد الآخر؟ من شهرين فقط كان بالدكان مساعد آخر غير هذا...كان لطيفا...وخجولا...وقلما

يبتسم، ولا يمانع في إعطاء السلعة في غياب أخيه الأكبر...هذا إذا كان فعلا أخاه، أما هذا الجن الجديد...فقد تعلم الابتسامة للزبناء قبل تعلم العمليات الحسابية...سوف أربيه ذات يوم...".

-والحساب؟

-في نهاية الشهر .لا تنس زجاجة الكوكاكولا...مثلج، واجمع الحساب.

-أي شهر؟ الشهر الذي انتهى من شهر...أم؟

عاد الزوج إلى البيت .نادى عليها .لكنه أبصر حقيبة يدها...رمى بمعطفه بعيدا ثم أشعل جهاز الراديو وانصرف إلى المطبخ .أخرج من كيس البلاستيك علبتي سردين وبيضتين وحفنة زيتون .كان يبحث عن مفتاح العلبة حين دخلت...

-أنت الآخر...سردين وبيض...أنا على الأقل فكرت في المونداا...

-وأنا في الزيتون.

وانهمكا بحماس في إعادة الحياة للمطبخ...هو يفتح العلب ويرتب بعناية السردين وحبات الزيتون في الصحنين اللذين وجدهما مباشرة أمامه...هل غسلتهما على الأقل؟ سألته ...وأين الموتارد؟ أجابها . كسرت البيض، واعتصرت قنينة الزيت ثم...

-أعطيني ولاعتك.

أشعلت الولاعة، لكن الفرن لم يشتعل، فانحنت لفتح "البوطا" لكنها وجدتها مفتوحة إلى آخرها...وإذن؟

-البوطا انتهت ياحبيبي.

-وإذن فغذاؤنا اليوم ياحبيبتي سردين...وبيض سائل.

الْحافِلة

الخاصة لنقل الموظفين انطلقت...تهتز...تميل ثم تتوقف كي تستأنف مسيرتها اليومية الرتيبة ذهابا وإيابا .تستخرجنا من بيوتنا لمقر العمل، ومنه تعيدنا...كطرود ثمينة يخشى على فقدانها .وجوه مألوفة حليقة وملونة تصعد من نقط على الطريق كي تتركنا فيما بعد...بعضها يحمل معه في كل سفرة علبا وأكياسا من تعاونية التموين وكأنه يتأهب لمواجهة مجاعة لا علم لنا بها بعد.

وسط الحافلة خط وهي يفصل النساء عن الرجال .النظرات تحاول مسح عموم ركاب الحافلة .ترسو على بعضها البعض لحظات قبل أن ترتد إلى موضعها متعبة تحدق في اللاشيء...أو مجموعة أشياء لا علاقة بينها.

-الرجال كلاب...كلهم .قالت إحداهن بحقد.

-لا...لا ليسوا كلهم ...أجابتها مخاطبتها مع إضافة مشروع ابتسامة ساخرة في اتجاهي .التزمت الصمت وعدم الاهتمام .فما بين أن تكون كلبا أو أن تكون رجلا شعرة يكفي اهتزاز الحافلة أو توقفها فجأة كي تنقطع.

وجوه متعبة، كأنها مرغمة على الحياة، نخرها الذهاب والإياب..." بلا فائدة"- قالت واحدة بحسرة- مرة، تقيأت إحداهن على ركب جارتها فوق المقاعد الأمامية...وحْم؟ لا تعشيت بالبيض .أجابت بخجل...أخرى أغمي عليها فأسرعت اللواتي كن بجانبها بقنينات العطور أخرجناها من حقائبهن لإسعافها...وأخرى لبست ذات صباح جلابتها مقلوبة مما أثار جوا من المرح داخل الحافلة كسر مؤقتا جو

الكآبة السائد عادة داخلها .أما الحوامل فهن يتماوتن بمجرد صعودهن من أجل مقعد فارغ.

رغم الماكياج والعطور النفيسة...فعلامات التعب، والحاجة للعودة للنوم...والعطلة...جلية في عمق النظرات الحالمة بصيف آخر.." هذه حياة ؟ !أستيقظ مع المؤذن...أحضر وجبة الغذاء...أعجن...أصبن...أبحث عن الحليب...أحضر الأطفال...والزوج...وأكنس...وفي النهاية عادة ما تفوتني الحافلة...ويترجل علي الرئيس...ماشي شغلي يقول...الله يعفو علينا وخلاص"...

-تصوري...إنه يراوغ في دفع النفقة و...

-معذور...من أين له...

-ولماذا يتزوج؟

الرجال حشروا أنفسهم في الجزء الخلفي للحافلة- وجوههم هي الأخرى تعبر بدقة عن تقلبات اليوم من الأسوأ للأسوأ .عيون تصطدم بأخرى لكنها لا ترى سوى ما في أعماقها...تحاول حصر الاندحار، لكنها...

صباح الخير...الله يعاون...مساء الخير...مع السلامة...موعدنا غدا...إن شاء الله.

"الفقيه" الغائر في معطف أكبر منه حجما كسرير متنقل، هو الوحيد فينا الذي ينام بمجرد انطلاق الحافلة...يقضي الرحلة حالما ذهابا وإيابا.

فما أسعده!

عِنْدما

تمتلئ أعماقك بمشاعر شتى...ويحاصرك الخوف ...الخوف من رهبة اللحظات الآتية، ليس لكونها مجرد الأيام الأخيرة من الشهر الأخير من السنة التي أنت موشك على توديعها...ولكن لأنها لحظات حاسمة ومصيرية .وعندما تتحول كل حركاتك إلى أفعال عصبية...متوترة تحاول دحر الخوف الذي يتسلل إلى أعصابك...فذلك لأن كل خيمة كبيرة نصبت وسط ساحة...خيمة وضعت بها كل رصيدك التاريخي ومشروعك المستقبلي...

خيمة تبدو في تلك الساعات من ليالي شتائنا العائد، كسفينة رأسية تعصف بها الريح وتكاد تجرفها الأمطار بعد رحلة مضنية من نقطة ما على شاطئ بحر الظلمات في اتجاه أفقي بعيد ومحتمل ...قاومت خلالها جنوب الموج العاتي وعواصف الرياح الهوجاء وتبدلات طقس لا يستقر على حال .فوقها النجوم في بعدها الأزلي وحواليها وتحتها الحوت الذي يلتهم الخشب والحديد ...والإنسان...وهاهي اليوم رأسية تجري بين جوانبها مياه الأمطار، وتثقبها خيوط الماء لدرجة أن بعض المؤتمرين فتحوا مظلاتهم داخلها بينما الآخرون وضعوا فوق رؤوسهم كل ما ملكت أيديهم من جرائد وكتب...فالرأس المحمية أكثر استيعابا من الرأس المبللة.

رأسية يدخلها أبو الفكر ويتركها بوتيرة أسرع من دقات الساعة، كإنسان مشدود إلى طرفي سلكين حلزونيين، لا يوقفه تساقط المطر، ولا صفير الريح ولا الظلمة القاتمة التي يددها بصوته المليء بالأوامر والتنبيهات

والتحذيرات...تسمعه هناك وتجده أمامك بلحيته الداكنة كأحد بحارة "المدمرة بوتمكين" لحظات قصفها من البحر.

الأمطار غزيرة، والماء تجمع على شكل برك فوق سطح الخيمة، وبينما هو يحاولون إفراغه ينقطع التيار الكهربائي...

-لا تلمسوا الأسلاك...

صوت محذر وسط الظلام يقطع ثقل الصمت المخيم داخل الخيمة...وهناك، شمعة لا تضيء سوى حاملها...كبخيل ساعة الحاجة إليه.

في إحدى غرف النوم يتحرك طفل في السرير ولا يجد أمه...فيوقظ الأطفال الآخرين الذين سرعان ما يجارونه ي صراخه الحاد...تارة بالتناوب...وتارة أخرى جماعة وكأنهم في جبهة عريضة ضد التهميش والتغييب .ويدخل أبو الفكر الغرفة، يشعل الضوء، فيشتد صراخهم، يرفع الأول إلى حضنه ...يهرب الثاني...بينما الثالث يعجزه الخوف في مكانه . يجلس معهم، يحكي لهم أشياء لن يفهمونها ولو مزجها لهم بالحليب ... »ماما في الخيمة...تناقش...سوف نعود...ها...هي «...ويضحك الأطفال...ضحك جاد، كارتطام الأواني النحاسية...ضحك يغطي على صوت تساقط المطر ...فما الذي ينبته يا ترى في هذا الليل أضحك الأطفال المغسول بالمطر؟

البرد قارس...يلتوي الإنسان على نفسه، ويظل يتلوى...ولا يولد حرارة إضافية، ورغم إغلاقه لجميع المنافذ التي يتسلل منها البرد كلص محترف...فما أسعد رفاق لجنة المطبخ والمطعم...والشاي وكل الأشياء الدافئة الأخرى.

والليل يكاد ينجلي...يطفأ الضوء من جديد بينما تضاء المنصة بضوء خافت أحمر على نغمات دقات قوية ومتسارعة شبيهة بقصف جوي، تنتقل الخيمة إثرها من درب غلف إلى قلب الأرض المحتلة حيث يصارع الإنسان هناك من أجل وجوده...وفي لحظات تمتزج الهموم القطرية والقومية في نغم واحد تزيده الأضواء الحمراء التهابا...وينتهي المؤتمر...

مأسَاةُ

السي محمد...الذي هرب من الجنة تقول أغنية من الأطلس الكبير تغنى بجمال الطبيعة في إيمنتانوت، بلدة صغيرة تتغنى عند منتصف الطريق بين مراكش وأكادير:

يا ذاك تعال...أقول لك كلاما. إيمنتانوت هي الجنة التي "أنتن" فيها. جنة؟ فيها من أوصاف الجنة الكثير عدا كونها جزاء على حسن السلوك...فهي مصير...وقاسي أيضا. إذا تركت المركز... ومركزها فيه من أوصاف المراكز القروية الكثير ...السوق...المدرسة...السلطة لمحلية..

فندق...بدون نجوم !..إذا تركت المركز في اتجاه» البلاد...«عبر تلك القنطرة...الوهمية، المشيدة تحت الماء...فوق ذلك النهر...المسالم الذي لم يسجل عنه أنه تسبب في فيضانات تذكر، والذي...لا منبع له معروف...ومحدد...ولا مصب أيضا...فهو عبارة عن وعاء للدموع المذرفة من الجبال في مواسم الأمطار...وشاهد عيان...أمين...إذا شحت المياه. فبمحاذاة النهر، وفي اتجاه الجنوب الشرقي، تجتذبك الطبيعة...العذراء والتي مازالت مستعصية على معاول الإنسان...فعدا الطريق التي ترسمها حوافر البغال في الجبل، منذ وطأت أقدام هؤلاء السكان الأقدمين هذه الأرض التي تنتشر بها أشجار اللوز...والجوز...وثمار هذه الأشجار أهم مادة يقايضون بها الزيت...والسكر...والشاي !...فباستثناء جهاز» الراديو كاسيت«، والمصباح اليدوي بالبطاريات...فلم تقدم لهم التكنولوجيا أية هدية تذكر!... هنا، في هذه الدواوير المبعثرة في أنحاء الوديان ...والهضاب

والمرتفعات...المشدودة إلى المنحدرات بفعل قوة جاذبية في اتجاه السماء لحفظ توازنها عبر السنين تبدو الحياة للزائر المؤقت وكأنها عقاب مؤبد !...الجنة ؟

هنا إذا زعزعت الأحجار...والصخور عن موضعها خطأ، فإن كل من صادفته حيا أردته قتيلا ...هنا إذا مشى البغل في تلك الطرق الجبلية الأضيق من السراط، لهث من الأمام والخلف...هنا حيث ساعات العمل والإجبارية تمتد من الفجر إلى العشاء وتفرض على الجميع من المهد...إلى اللحد...هنا حيث يعاد إحصاء القطيع يوميا ومع كل غروب للشمس، ويحاسب الكلب حسابا عسيرا على تخاذله وجبنه أمام الذئب وغدره...هنا حيث يطرح مقدم الدركي...وحارس الغابة...صحبة أمغار...ووصول رسالة من المدينة...أسئلة فلسفية مقلقة...ماذا حدث؟ من؟ لماذا؟ وماذا سيقع؟ هنا...حيث لا تتزين المرأة إلا لزوجها...وتتزين من لا شيء...هنا حيث لا تسافر نفس تلك المرأة إلا مرتين في العمر...مرة إلى بيت زوجها والأخيرة للقبر...هنا حيث يحدث أن تضع الحامل مولودها...وقطع سرته ...بمفردها...بمساعدة العناية الربانية... فقط...

هنا إذن، تزين الرجل واستعمل المرآة، وإذا ارتدى البياض كالمكفن واقفا...فيجب البحث عن المرأة المعينة...فورا...هنا حيث الحب...كالكراهية...كالجوع...كالكرم...كتساقط
الثلوج...كالجفاف...إذا حل أي منهما حسمت الأمور بحزم...هنا مسقط رأس الفقيه السي محمد...والمهاجرين الذين سبقوه!

لعل ذلك حدث ذات يوم اثنين...يوم السوق، اليوم الذي يتحرر فيه الأزواج من زوجاتهم، فيركبون البغل بعد منتصف الليل ويسافرون نياما مطمئنين إلى ذاكرة دوابهم...وسلامة الطريق، فالخنزير لا يهاجم إلا إذا كان مطاردا...أو جريحا .وفي " الفندق " الذي تقتصر خدماته على

تقديم الأواني والنار والماء الساخن يتناولون الفطور والغذاء...الطاجين بلحم الشاة...ولحم الشاة هنا لا يسبب الإسهال !...وعند الظهيرة يحملون بغالهم بما لا طاقة لهم به ...ويصعدون الجبل...كأسراب النمل...بغلة وراء بغل...والعكس صحيح...يركبونها جنبا تفاديا لكل كبوة محتملة .! وكالآخرين هاجر بدوره...فالذي يحفظ ستين حزبا يعرف بالضرورة أن أرض الله واسعة...وأن الأرزاق ...أينما كنتم...قصد الدار البيضاء زادُه مكنونات صدره ونية صادقة في تغيير المصير ... والمسار...وفقط...فالأرض هناك لا تباع ولا تشترى، ولا تقاس الهكتارات...إنما بأعداد أشجار اللوز، والجوز ...والغابة التي تسكنها الذئاب، والخنازير والمخلوقات الخرافية! ..

وككل المهاجرين سكن الكريان...مدينة من الصفيح تغلبها جميع أحوال الطق ويقضي سكانها يومهم في ترميم الذي لا يرمم وذلك بلحم الخشب وبالصفيح .ومن لا شيء مارس التجارة...تجارة تقسيط...التقسيط، وبسرعة أدرك أن "الطلق ممنوع" ...وأن "الرزق على الله"...فالنهر يمتلئ نقطة...نقطة، والنقط آتية لا ريب فيها...ولم يخب ظنه، بل أصبح علما، وطرفا في الحوارات اليومية» سير عند الفقيه « عبارة تتردد من مطلع الشمس إلى ساعة إغلاق الحوانيت من طرف ربات البراريك .ولما أصبح مدخول الحانوت قابلا للاقتسام ما بين ضرورات الحياة في الكريان، ودعم العائلة في» لبلاد «برزت ضرورة الزواج، فالفقيه الأعزب غالبا ما يكون مثارا للشبهات ! تزود بأشياء جميلة من» القريعة «واتجه نحو كراج علال.

الأعراس في إيمنتانوت تقام مرة في السنة...هي نادرة كندرة المباهج، وهي تقام بعد جني الخيرات من الأشجار...ومدرجات الجبل...وبعد استيفاء الأضرحة»...نصيبها «من عرق الآخرين...وعندما يكون مستوى الماء في» إيفري «عند مستوى الوحل...وعندما ينعم القمر

بطلعاته الطويلة الأمد...وعندما تحتفظ الأمسيات في الهواء الطلق بحرارة شمس النهار إلى ما بعد صلاة العشاء ...عندئذ تقام الأعراس...ويرقص الجميع، الذكور والإناث ما قبل الزواج...رقصة أحواش...حيث الرقص على نغمات "الطارة" التي تطن بوتيرة سريعة كدقات عجلات قطار يلهث في اتجاه محطة بعيدة...يهز الأجسام ويؤجج العواطف...وينتهي الصيف!

وتستأنف الحياة، وأهم ما في الحياة أنها تمارس حتى في أسوأ الظروف...حتى في عقر براكة يتهددها الحريق...والمطر...والريح...والهدم المبيت...مع سبق الإصرار...كالناتج مثلا عن ضرورة إفساح المجال لمرور الطريق السيار... لتوأمة مدينة الرباط والدار البيضاء!

قال "وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم! " ، فمرور الأطوروت مكنه من الانتقال من البراكة إلى الحي الجديد بعد هدم جزء من الكريان، وأهم خاصية في الوضع الجديد، هو أن هم تحويل القفص الحجري إلى بيت حقيقي يستغرق من المستفيد العمر كله ... يصلح...يهدم...يبني...يضيق...ويترقب غروب وشروق المقدم .لكن الانتقال من عصر الصفيح حتى وإن كان قد استغرق ما يزيد عن ربع قرن ...فهو تقدم "محسوس" في طريق إنجاز...مشروع السكن...الصالح!...

حول جزءا من الغرفة إلى حانوت لبيع المواد الغذائية ...ووسائل طبخها...من قنينات الغاز، والزيت، وعلب الكبريت...وأخذ يحلم بتغطية حساباته مع البناء ... والنجار...والرصاص...والكهربائي...ليتفرغ لتأثيث البيت استعدادا لذلك اليوم الذي يحل فيه الأهل لتمتيع هؤلاء "السهليين"بأجمل ما في إيمنتانوت...أحواش!...

عند الفجر، استيقظ كعادته ليتوضأ، كان الغاز...غاز البوتان قد ملأ البيت...أشعل عود الكبريت ...أو لعله ضغط على الزر الكهربائي فوقع الانفجار، وانتشرت ألسنة اللهب تأكل بشره الأحياء والجمادات، وتحول سنين الكدح والأحلام والانتظار والفرح والحزن إلى حطب لجهنم...كعقاب على الهروب من الجنة!

انتهى...مات الفقيه...واثنتان من بناته...والباقي ما يزال قيد العلاج!...

قالت له زوجته وهما في سيارة الإسعاف:

-ماذا فعلت يالسي محمد؟ ماذا فعلنا!...؟

قال:

-لن يصيبكم إلا ما كتبه الله لكم!...

قالت أمه:

-لو شاهدتم جنازة ابني لما قلتم أنه من أبناء إيمنتانوت!...

قال أحد المعزين:

-نحن نعيش عصر الميكا...الصندالة من الميكا...الأواني من الميكا...حتى المحافظ...

عود كبريت وينتهي كل شيء!...

الطفل : أنا لن أذهب هذا الزوال...إلى المدرسة!

قَالَ قالها، ثم خفض رأسه ينتظر ردود الفعل...يداه ترسمان على المائدة أشكالا لا مرئية بواسطة قعر كوب الماء التي كان يحركها في مدارات متقاطعة .عيناه تقولان كلاما...وشفتاه المنقبضتان تقولان همهمة...غير مفهومة...وأذناه في أقصى درجات الانتباه!

خاطبه جده : كل...تغدى أولا...وسوف نرى!

أجال الطفل بصره على الحاضرين، بحث عن عينين مساندتين لقراره المفاجئ...التقت عيناه بعيني...وثبتهما في وجهي للحظات عساه يكتشف ثغرة ينفذ منها إلى...ركن الطفل...في هالة أبوتي...السلطوية...!ابتسم...وكدت أبتسم بدوري .في عينيه يكن التمرد...تمرد يغري بالتمرد...فماذا لو غاب الطفل عن درس الفرنسية؟ ماذا لو قبلت أن أكون طفلا مثله...هذا الزوال...فقط...على الأقل؟ ولكن لماذا لم يستشرني مسبقا فيما قرره لوحده...ومن طرف واحد...أو ليس الأمر شورى بيننا؟

-ولماذا لا تذهب إلى المدرسة...؟

-لأتفرج على مقابلة المغرب...تونس...

هي الكرة...إذن!... تلك اللعبة التي كنا نمارسها بشوفينية مطلقة..بين الأحياء...تلك اللعبة التي لطالما حذرني والدي من مغبة نتائجها...على دروسي...تلك اللعبة التي لطالما اضطهدت من أجلها ...حتى صرت أمارسها سريا !...وماذا جنيت منها...كسر في رقبتي يؤلمني في كل

فصل شتاء!.. لا...لا..لن أشجعه على الغياب من المدرسة من أجل مشاهدة...الكرة ..هذا قراري!...

حملت محفظة الطفل .ولكم كانت ثقيلة !...وأمسكت بيده وتوجهنا سويا إلى المدرسة .كان صامتا .لم يكن ينط على الطوار كعادته...وبرجل واحدة...لم يكن يراوغ الحجارة والعلب الفارغة والمارة وجذوع الأشجار...ويصيح...إصابة!..

فيضحك المارة .وقد يقول أحدهم"الله يصلح"...ويمضي .لا...لا ...لم يكن يوقف الهواء بصدره على أن تمريرة عالية من الجناح...في اتجاه...قلب الهجوم...ولم يكن يسجل الإصابات الوهمية برأسه..ويقدم..!لا..كان صامتا يمشي خلفي باستسلام ويجر قدميه بلا مبالاة..وبشكل يوقظ وجع الأسنان ..الباقي منها !وعند مرورنا بواجهة المقهى المقابل للمدرسة أحسست بيده في قبضة يدي تنقبض...وتنجدب للخلف ومشيته تتعثر إلى أن توقف نهائيا...وتوقفت!

كان المقهى قد أنهى كل الاستعدادات الخاصة باستقبال المتفرجين...الكبار..هواة كرة القدم..المقهى صغيرة..وكان جهاز التلفزيون مثبتا عاليا على الجدران فوق الكونتوار بحيث تكون مشاهدته عموديا من فوق لتحت، وقد أسدل الباب الحديدي اللولبي إلى النصف لإضفاء المزيد من الظلام بالجمهور..وقبل بدء الإرسال..النزول التلفزيوني..سألني الطفل وهو يشير برأسه إلى داخل المقهى:

-هل يلعب الزاكي؟

-نعم..وخيري...والضلمي..و..كلهم!

-خاوار!..

في باحة المدرسة كانت المعلمات ينتظرن اكتمال صفوف التلاميذ .كن متحلقات على شكل دائري...لكأنهن يتآمرن ضد الصغار !تقدمت مني معلمته وعلى وجهها ابتسامة...ابتسامة ظرفية موجهة إلى الطفل على

الخصوص...لكأنها تبتسم لأول مرة !..سألتها عن أحوال فلذة كبدي...هذا الذي أجره جرا إلى المدرسة...فابتسمت للمرة الثانية .. جلابتها من النوع الرخيص..تبدو أكبر منها بكثير..ومغلوبة في أكثر من واجهة..ويلزمها أو ينقصها الكثير!

- شوية..مزيان..ما بيهش!...

كلام جميل عن نتائج غير جميلة بالمرة..ولاشك!

كان الطفل مطأطئ الرأس إجلالا للموقف أم لانتظار الأسوأ !كان يحرك قدميه على الأرض بعصبية..حتى خفت على الحذاء من التآكل .صرفته معلمته..فقفز سريعا وانخرط في الكوكبة..سألتني المعلمة:

- هل أنت» قاري «شوية؟

- شي..شوية..قلت لها..وبتلعثم!..

قالت : عليك بمساعدته في البيت على حفظ التلاوة الفرنسية لغة جديدة عليهم هذه السنة..ودروس المراجعة لا تكفي لوحدها!..

تركت المدرسة إلى البيت فرارا، فنقل المباراة سيتم بعد لحظات..قلت لنفسي في الطريق» وهل يريدون مني قتل الطفل كي يتعلم الفرنسية؟ الدروس في المدرسة..ثم دروس المراجعة الخاصة..ثم حفظ التلاوة في البيت !فهل يظنون أنني أهيئه للانتخابات الرئاسية الفرنسية!؟..خوار«!..

وانطلقت المباراة...

كان الجد يشاركني متابعة نقلها على الشاشة..بصعوبة وجد مكانا مناسبا ومريحا وقريبا من الشاشة .كانت صينية الشاي أمامه.

وببطء كان يملأ الكأسين وعيناه معلقتان بالشاشة .الإبريق في الهواء كمركبة فضائية ..غازية..ينفعل حسب انتقال الكرة من قدم لأخرى..يهلل ..أو يحبس أنفاسه بسرعة تواجد هذا اللاعب أو ذاك ..

في هذا المربع أوذاك..يحيا ويموت..وكأنه يصارع أشباحا مخيفة !.. يخاطب المعلق الرياضي واللاعبين ..ولا ينفك يصرخ "شوف..شفتي .. كحل التلفزيون ..زد فيه!.." كان يرفض للحكم أن يصفر لغير صالحنا .. وأحيانا أن يصفر..بأمره..فمعارفه كلها في كرة القدم يختصرها في تسجيل الإصابات في شباك الخصم!..

وتأهلت تونس..قلت له"انتصرت تونس يا أبتاه!"..

ذهل للحظات ثم صاح بي "ولكنه التعادل..فقط!"

لن يفهم..لن يفهم أن الذي انهزم في الذهاب لن ينتصر بالتعادل في الإياب..والهزيمة لا تبرر!..

خرج الطفل من المدرسة..محفظة على كتفيه كجندي عائد من معركة خاسرة..كان صامتا!

قال..: خسرنا..تفرجتي!؟

قلت..: نعم..ولكن أنت..؟

قال : كان مع المعلمة جهاز راديو!

11فبراير1988

هذه هي تافيلالت!..

إِذَن وجوه سمراء تمتص أشعة الشمس على مدار السنة وتحولها إلى حرارة تشعر بلظاها ..وأنت تصافح اليد الممدودة إليك التي تدعوك لتتناول الشاي..هناك..وراء واحة ما تقاوم العطش ..وهمجية الريح..وأصناف أخرى من الكوارث الطبيعية..!

سألوني في الرباط أتذهب إلى الريصاني؟ فكان جوابي اللهم لبيك ! تزودت بفضولي..وجهلي ..ومخلفات الرطوبة في رئتي .. وسافرت..سافرت لأنزع فتيل البعد عن المسافات ..حتى آخذ نصيبي كاملا من..المواطنة !..أشرب من ينابيع الشمس..وأعرض روحي على هبوب رياح الساحل المحملة بالرمال العابرة..للحدود ..وأملأ مقلتي بالمآثر البائدة ..التاريخية..ولأشهد على زحف الرمال المتحولة .. وأعاين..مرض البيوض..وتلك بعض من أوجاع اللامركزية!

يرن الهاتف في غرفة الفندق، فينقطع مسلسل الأحلام..ويتداخل الرن بنداءات حسن زميلي في الغرفة...لنسج مقدمة جديدة..لحلم آخر..حلم يشدك إلى الفراش..وتتمنى لو يتغاضى عنك زميلك..لكنه مصر على إفساد كل شيء.

-"الساعة الرابعة والنصف ..صباحا..انهض!.."

تبعد قرية مرزوكة عن مدينة أرفود حوالي الستين كلم شرقا على متن سيارات "لاندروفير"..لكنك تجدها حاضرة في كل الأفواه..فمن يدخل تافلالت ولا يزور مرزوكة، إنما هو كمن زار تافلالت ولم يزر ضريح مولاي علي الشريف ..وحجه إذن غير مبرور.!..

وتنطلق القافلة بجنون ..في سباق ضد شروق الشمس، السرعة هنا لمن يستطيع الإسراع أكثر..فعلامات "لا تسرع يا أبي!..." لم تنبت بعد في هذا..التيه..فمن يكون طلوع الشمس في انتظاره، يبقى مفقودا إلى حين انجلاء الظلام!...

مرزوكة قرية صغيرة..النقطة ما قبل الأخيرة قبل التيه !..صومعة ..تخترق كتلة من البيوت ..في اتجاه المطلق..وبجانبها..دائما في اتجاه الشرق بحيرة صغيرة..مالحة..لا تزيد العطش..إلا عطشا..وبقع الملح.. تزين التربة..المائلة إلى السواد..وتحدها كثبان الرمال العالية..الهرمية الشكل والمكونة حسبما تشتهي الرياح..ومن جهة ما،ينفتح المطلق..ليمتص التائهين..خلف خطوط السراب..اللامتناهية..!إنها مقبرة الجراد..إلى أن ينبت الزرع من الحصى!..

في كل فجر ينتهك حرمتها قوافل العشاق..المسكونين برومانسية الصحراء..ما قبل الصحراء..يغسلون عمشهم..بأجمل وأروع وأفتن شروق الشمس..في الدنيا ...تصعد من الغيب خلف رؤوس أهرامات كثبان الرمال،، القمحية اللون قوسا ثم هلالا ثم قرصا !..وبعد خشوع مؤقت يعم الهدوء..هذا الفضاء الرملي..المتحرك..وتنتشر "الحقيقة" : العودة إلى أرفود ..أو الريصاني ..وتظل مرزوكة تترقب "إرادات" المستثمرين الباحثين لاستثمار مشهد شروق الشمس!..

في البدء كانت الأيام الدراسية للصناعة التقليدية!

الكثير من التاريخ..للكشف عن أصل الإبداع من عصر سجلماسة ..إلى عصر المجمعات ..والقليل من الإشكاليات الحقيقية..وحوار بين "المعلمين" والمنظرين..لم يكن في مجموعه يصب في قالب واحد .. مزخرف..فالمعرفة المجردة ..والمصلحة الفورية برزخان قلما يلتقيان !.. والخاسر؟ تاريخيا ..الحرفي..وواقعا هو نفس الحرفي،، الغارق في الوحل وصهاريج الدباغة...الذي ينقش

الخشب..والحجر..والجلد..والمعادن..والأثواب..ليصنع الجمال و الروعة ، الأصالة وحتى الإبداع مقابل سيل من الوعود..من إدماجه في نظام الضمان الاجتماعي إلى جعله موضوع ميثاق وطني...وفي انتظار ذلك..تعطاه مساعدة غذائية ..ماركة "هدية " من الشعب الأمريكي...دقيق وزيت...أليصنع "الشفنج"؟ مبروك..!بينما السماسرة..الذين يتقنون اللغات الأجنبية يستحوذون على العملة الأجنبية!..

في لقاء مع المستثمرين..السياحيين، كان مسؤولو الإقليم في قمة الجود والعطاء..لإغراء الاستثمار،،بالمغامرة في هذه الواحات الجميلة !..وكان الرد...غير الرسمي طبعا!..: "كنا

دائما نبدأ بتطبيق سياسة العرض ثم بعد ذلك نبدأ سياسة الطلب ..وقد حان الوقت لعكس القاعدة!.."

فهل تنتظر تافيلالت كثيرا..قدوم المشاريع السياحية والسينمائية..؟ في أنتظار تحقيق الرؤى ..يواصل الشباب المتحمس..ردع زحف الرمال وذلك ببناء المزيد من الخطوط "الأمنية" الاصطناعية .. والبيولوجية..ومحاصرة مرض "البيوض" الكارثة..الذي حولنا من مصدرين للتمور إلى مستوردين لها..وغزو باطن الأرض لاكتشاف المزيد من بحيرات الماء!...

الأرض أعطت "عين العاطي"...فماذا ينوي المسؤولون إعطاءه بعد عطاء..العاطي!؟

تَوقَّفت الحافلة في إحدى المحطات على الطريق لتتزود بزبنائها المعتادين .صعدت إليها إحدى "الزميلات" تحمل في يدها وعلى غير عادتها قفة تتصاعد من داخلها رائحة لذيذة..ومألوفة في مثل هذا اليوم من كل أسبوع .. الجمعة !..وقبل أن تستأنف حافلة المصلحة طريقها انتشر الخبر والرائحة معا وسطها، واشرأبت الأعناق تبحث عن مصدر الرائحة..وتتساءل بمكر عن صاحبتها، فالتقت النظرات بعد مقاطعة شبه طويلة..وتداخلت الابتسامات تعبر الحاجز المصطنع..الوهمي المقام لمنع الاختلاط بين الجنسين..والذي قسم داخل الحافلة إلى عنبرين...أحدهما للرجال والثاني للنصف الآخر!..

التقت العيون...العيون المتعبة من ارتياد هذه العلة اليومية...المعاشة كاقتباس رديء لرواية أردأ...تتسلل خلسة نحو بؤر بعضها البعض تحمل السؤال..والجواب، وتوزعه على بقية العيون الأخرى..الغافلة..والنائمة..المنتشرة في هذا الفضاء المصفح والمتحرك وفق مسار مبرمج بدقة متناهية لربح الوقت الضائع..عيون أجمل ما فيها أنها تبصر وتكدس الصور بعشوائية..ولا مبالاة..ودون إخراج ولا مونطاج...عيون تخلي مجالات رؤية بعضها البعض..بالتناوب..لتلقي بنفسها خارج النوافذ الزجاجية المغلقة..دوما..تتعلق بالعالم الخارجي المتحرك في اتجاه عكسي!..

أفسحوا للزميلة شقا وسط الازدحام .كانت على شفتيها بداية ضحكة مكتومة، تكفي إشارة بسيطة من أحد ما لتنفلت منها...مدوية..تكشف

عن ضرسها الذهبي الذي يتلألأ في فمها كمنارة في الليل على شاطئ بعيد ..فتحركت غابة الأيدي الممدودة إلى أعلى ...كأنها تتوسل سقف الحافلة...تتبادل الإمساك بالمقابض خوفا من فرملة فجائية وعنيفة في رحلة العمر هذه..العقيمة، فيقع المحذور..ويتم الاختلاط..وتفسد لعبة نظرة..فابتسامة...وتنتهي أكذوبة..النسيان ولذة الانعزال وتتوقف مغامرة محاولة إيقاف النزيف الداخلي ..ليطرح السؤال الكبير : ماذا جرى؟ !

أخرجت الزميلة من القفة فوطة ملونة فتساقطت النظرات صوبها..وتعلقت الرؤوس الخلفية بالأكتاف..الحواجز..التي أمامها..وثبت السائق عينيه على المرأة..مضحيا بمخاطر الطريق من أجل فرجة تجري أطوارها في الخلف !وبعد عذابات الاستفهام..و مضاربات الرهان، أخرجت الزميلة من الفوطة صحنا أبيض اللون يتصاعد منه بخار لذيذ مشبع بمرق الخضر..وقطعة من اللحم..المرتب فوق هضبة مقعرة من الكسكس...فاتسعت الخياشيم تمتص بلهفة الرائحة الجديدة بعدما أنهكها صد هيجان روائح العرق الممزوج بخلائط العطور..والمراهيم..و "لذة" الجوارب المستعملة طوال النهار..وتعايش الأجسام الملتحمة ببعضها وسط الزحام..قسرا..كأنها تقاوم انجراف أرضية الحافلة..أو الانزلاق أو السقوط..فوق بعضها البعض!

وبعد مقدمة تشويقية...شبيهة بمقدمة الساحر فوق خشبة المسرح قبل كشفه عن حمامته قدمت الزميلة الصحن وبوسطه ملعقة مدفونة رأسا إلى سيدة حامل، كان الجميع يحرص دائما على الاحتفاظ لها بمقعد فارغ في دوامة التهافت على المقاعد الفارغة التي تحدث عند انطلاق الحافلة!

-كولي..ماتحشميش..الوحم صعيب!..

فوجئت الحامل..كأنها لم تكن تتوقع أن هناك وفي محيطها..من سوف يسرع لتحقيق إحدى رغباتها الموسمية التي كانت قد عبرت عنها في

لحظة ما..عابرة..في إطار دردشة على الطريق..لتحمل مطبات الطريق..دردشة حول شهوات الوحم..المستحيلة..وأثقال الحمل العسيرة..وكابوس الوضع..تماما كما نفعل بكل رغباتنا التي تسكننا ونعبر عنها حينا، ثم سرعان ما ننساها لاستحالة تحققها..ثم طفقت تشغل الملعقة..بكامل طاقتها الاستيعابية..شهية..حرة ..ومفتوحة لا تزيدها اهتزازات الحافلة إلا تشبثا بالصحن ..وتوجيه آيات الشكر لصاحبته "زوين...الله يعطيك الصحة!" ...وبحاتمية..صادقة، وجهت الدعوة لكل الزميلات لمشاركتها مأدبتها غير المتوقعة، ولم تتخلف عن تلبية الدعوة سوى اللواتي غلبهن "الشيكي"...والإحراج.. أما الرجال فقد رفعوا شعار : "شي ياكل وشي يشوف!..".

وبينما الحافلة تقطع الطريق في اتجاه المباني الضخمة كان داخلها يعيش إحدى لحظات الاحتفاء بميلاد جديد في الطريق ..قد يكون مبررا..وبديلا لتحمل لولبية ..محنة الصعود..والهبوط..من الحافلة!..

وغابت الحامل ..واحتلت مقعدها حامل أخرى..ثم جاءت الأخبار فيما بعد..مجزأة..تقول إن الحامل قد وضعت مولودا..ذكرا..مات بمجرد إطلاله على..نمط حياتنا..وبعد الوضع طلقت من زوجها..

وأما الرحلة العقيمة..فلازالت مستمرة!..

وهذا الرجل ...هو واحد منهم فقط !

يُفْتَحُ الباب بحذر شديد كمن يفتح باب غرفة مريض..نائم..،يدخل برأسه في فجوة الباب فتبدو شبيهة برأس بين حدي مقصلة..أرفع رأسي فتصطدم عيناي بجبهته المشققة كأرض عطشى!

وجه شاحب ولكأنه قُد من جميع أصناف المآسي، لا يشجع على إطالة النظر إليه إلا إذا كانت شحنة ساديتك جد عالية..يدخل فأعرف للتو أننا في شهر يونيو ..أو لعله ديسمبر، وهما الشهران اللذان دأب فيهما على زيارتنا منذ إحالته على التقاعد!..

إنه أكثر اكتئابا من المرات السابقة، يرتدي نفس الثياب التي كان يرتديها منذ ثلاث سنتوات مضت..لكنها نظيفة وتحمل آثار كي..مرتجل..وجهه حليق..كالعادة ولم تزده الحلاقة إلا ذبولا ..ويحمل ندوبا حديثة..لعلها من فعل استعماله لشفرة قديمة..يعيد نفس الجمل..ويكرر نفس الحركات..ولا يبتسم...طبعا !..ولكم تمنيت لو يفاجئني بابتسامة ما ..ولو صفراء ..فقط كي أرى كيف تكون الابتسامة في وجه خانته أطراف عديدة...كان آخرها زوجته!..كان حديثه عنها يكتنفه الكثير من الغموض..ولكن بدون انفعال..ولا كراهية..لكأنه يحكي عن مشهد مسلسل شاهده البارحة..لدرجة أنني لم أصدق أن تكون زوجته هي التي طردته فعلا من البيت..أياما قليلة بعد طرده من..الفراش !..وبعد مدة قصيرة من تقاعده..المطلق !..يا إلاهي لماذا لا نولد كهؤلاء..وننتهي رجالا!..؟

دعوته للجلوس، فأمضى وقتا طويلا صوب الكرسي الفارغ..قال : "حتى الغرفة التي اكتريتها مع الجيران..هدمت إثر إحدى حملات الهدم ..

المفاجئة..!ضحكت..حتى سالت دموعي..فكاد يبكي !..واسترجعت فورا ضحكتي..وعلى درجات!..

قبل دخوله، كنت كسمكة تسبح في حوض زجاجي ضيق..وملوث..أعبث بجسمي..ويعبث خيالي..حاولت ملء مربع الكلمات المتقاطعة لكنني سئمت من البحث عن المطرب العربي..الراحل..والزعيم العربي..الراحل..والبلد العربي..وعن بقية الكلمات الأخرى معكوسة ومبعثرة..ضجرت..!..ضجرت لدرجة أنني حدقت في الساعة طويلا قبل أن أعرف الوقت..وفجأة اجتاحني الغيظ من ذلك الصديق الذي أهدى إلي هذا الصباح نصيحة تبدو بريئة..ظاهريا..قال : "فكر في شراء الثياب الشتوية في هذا الصيف..فهي الآن رخيصة!.." .الصيف؟ الشتاء؟..بئس الأوضاع أوضاعنا..لا تفكر إلا في الاحتماء من تقلبات الطقس !هزلت !...ملت بالكرسي إلى الوراء وحدقت في سقف المكتب أتساءل أيا من المصابيح الثلاثة هو المعطل..

ترى لو عطلوها جميعا..فهل كنت أتعرف على الذي هو معطل..فعلا..،.وبسرعة!..؟

مد إلي بطاقة تعريفه..تبدو أجود..وأسلم..ولربما أثمن ما يملك الآن..وحتى غدا..ورقة مصقولة..وحادة الأطراف كشفرة الحلاقة .. ولازالت صالحة للاستعمال سنوات أخرى ..وهي فترة من المحتمل جدا أنها أطول من عمره المتبقى..فإن لم يقتله غدر زوجته..قريبا..قتله البحث عن غرفة أخرى !..وللمرة السادسة في تاريخ علاقتنا يسألني..وبارتباك..مبالغ فيه:

-وهل هناك زيادة..هذه المرة!؟

أبتسم..فيستعد للنهوض..ينظر إلي صامتا..وأتحاشى نظراته..الميتة..بالانشغال بالأوراق التي أمامي..يترك المقعد فأسعد

بنسيم الفرج..ويمد إلي يده..فنتصافح..أصابع يده متخشبة..ومستقيمة كطريق من أربع ممرات ..أسحب يدي فأحس أن بداخلها ورقة..أعرف من ملمسها أنها ورقة مالية..قلت لنفسي : "لا بأس..إنه فقط يشفق لحالي!.."

قلت له : "خذها لعلها تنفعك في استعمال الطاكسي!"

أحنى رأسه..ومال صوب الباب..يترنح كورقة مرمية في مهب الريح..وعند عتبة الباب..قال لي..وبصوت محتضر:

-الطاكسي؟ وهل في اليد ما يستوجب الإسراع؟

30يونيو1988

نوم هذا الصيف!...

لاَ سوف نسهر الليلة إلى الصبح..ليلة السبت في الساعات الأولى من صباح يوم الأحد..أو بالأحرى سوف لن ننام الفصل كله..أفلسنا مدعوين إلى جميع حفلات الزفاف المقامة هنا ... وهناك..وإلى جميع حفلات العودة..سواء من مكة..أو من جمهورية.. السوق المشتركة ..وإلى جميع حفلات الختان وإن كان الختان لا يناسبه الصيف..ولكن ..وإلى..أية مناسبة ينشطها الجوق..ومكبرات الصوت...قالت : "إخ..من هذا الحي.!.." حي يظل يبث الأصوات أربعا وعشرين ساعة..متواصلة..وبدون انقطاع..صراخ الأطفال..عراك الأطفال..مناداة الأطفال..شجار الكبار..لغو الكبار..نقاش الكبار..انفجار الحراقيات...تحطيم الزجاجات..ترميم الجدران والسطوح..لمواجهة فصل الشتاء..البعيد..وعواء مكبرات الصوت ليلا..والمواجهة..قصدا..لكل أنحاء العالم ...لكأن من لم يتزوج في هذا الصيف ..سيظل أعزبا العمر كله!..

ظل الطفل ينتقل بين دار العرس..وبيته إلى أن غلبه النوم في الطريق فحمله أحد رجال العرس إلى البيت سألته : وأين كنت حتى الآن؟ قال وهو يبحث عن مصدر..السؤال.." في العلش" !..لقد فسدت لغة الطفل منذ بدأ يتردد على الأعراس بمفرده..وبدون دعوة..!قالت أمه: "من شابه أباه فما ظلم!.."

الثالثة والربع صباحا..ولازال مكبر الصوت يذيع بأقصى طاقته.." شوفي غيرو..والعزارة أعطى الله!.." صوت المغني كان مبحوحا ومتقطعا..فهو لا يستطيع إكمال اللازمة الغنائية... كان يصيح :"شوفي غيرو.." بينما

الآلات الموسيقية وأصوات بعيدة تتم الباقي ..لكأنه أحد أقرباء العريس..اكتشف ما لم يكتشفه العريس..وإلا فما معنى أن يجعل من "شوفي غيرو.." مسك الختام!؟..

في الحر نسيت القرا!..

قلت له : "ما رأيك في أن نبيع الدار - فهذا موسم المضاربات - ومن ثمنها نشتري بقعة أرضية على الساحل..نبني عليها دارا..هي أقرب إلى الفيلا..نستمتع بالبحر..ومداعبة الأمواج للصخور..ونكحل أعيننا بزبدها..أربعا وعشرين ساعة في اليوم..حتى يكبر الأطفال على حب البحر..ونكون لهم أذانا موسيقية..رهيفة..بدل الجري وراء مقلدي"مول الكوتشي بضاض إيرشي..".

قال : وفي فصل الشتاء؟...

لم أجب...إن التفكير في المستقبل يعتبر من الأسباب الرئيسية والمباشرة للكثير من حالات الهذيان...و...!...فعلا..وماذا نفعل في الشتاء..نبكي على الصيف..؟عندما يكون صوت البحر مخيفا..وتكون آذاننا قد أصبحت رهيفة..تتوجس الخطر..منذ الساعة الخامسة مساء..!...

قلت له وعلى سبيل الاستفزاز : نبيع دار الشتاء!...

قال : وقد استمد فجأة...سلطة أبوته...

-الدار...أولا هي داري..ولن يخرجني منها سوى المخزن..أو الموت..

البرونزاج والفلوس!...

الْكَثيرون

ممن نعرفهم خرجوا..في عطلة..بعضهم قال لنا : "يامينة بالسلامة...الكار مشى عليا". والآخرون انسحبوا من مجال رؤيتنا...كما تنسل الشعرة من العجين..ولن نراهم إلا بعد أن تتحول جلودهم إلى ما يشبه جلدة الدجاج المشوي!..وأنا ..وآخرون مثلي، نتقاطع في الطرقات.. والمقاهي..كالمخبرين في حالة استنفار..روتينية..نتبادل سؤالا واحدا،،وجوابا واحدا،،لا غير:

-لا..ماكاينش..الفلوس..!

ونفترق..فاللي ماعندو فلوس..كلامو مسوس...!

قالت : لقد قررت البنات الذهاب إلى المسبح البلدي...!

قلت : ولن تذهبي أنت إلى المسبح البلدي..هل تذكرين..؟

قالت : نعم..أذكر..في العام الماضي..أصبت بالتيفوئيد..وكنت في العام الذي سبق عام التفوئيد قد وعدتنا بقضاء العطلة في شاطئ الجديدة..وهذا العام...؟

قلت : فوق السطح..فلن يميز أي أحد بين"البرونزاج" المكتسب من الشاطئ..والبرونزاج المكتسب من حمام شمس فوق السطح!؟..

وانصرفت..خائبة..طبعا .وعند عودتها لم أعرف أين غيرت لون جلدتها..في المسبح البلدي..أم فوق سطح البيت!...؟

ولا زال الصيف حارا!...

وراء كل رجل عظيم!...

قالت : هل تعلم أن وراء كل عظيم...امرأة؟

18غشت1988

ياالله !...ولماذا لا أحلل وأناقش...فحوى هذا المثل..مع هذه التي تسكن في العام مستشفى الأمراض العصبية..أكثر مما تسكن الشمس سماءنا..حتى يطمئن الذين يقولون إن نصف عقالنا يسكنون المارستان...وإن غالبية المجانين هنا يعيشون حياة عادية ..بين ظهراننا..

قلت : لا... والله العظيم!...

فأطلقت ضحكة مدوية...نصفها الأول عذب إنساني والباقي لا يحتمل ..إنه كتتابع صراخات إنسان تحت التعذيب ..في اللحظات التي تسبق فقدان الوعي..خفت...لا عليها...ولكن على "سمعتي"..فماذا لو ظن الآخرون أنني أداعبها ..ماذا لو توقعوا أنني مددت يدي إلى أشيائها ..العاقلة؟...فسوف يخصونني بثلاثة أرباع لعناتهم..بالتأكيد!..

قالت : أريد أن أنام..

إن قائمة الذي تريده غير محصورة..ولهذا فما علي سوى انتظار الأسوأ!...

قالت : لقد سهرت البارحة إلى الثانية صباحا في الشاطئ ..مع مدير بنك..متزوج طبعا!...

"المجنونة ومدير البنك"...عنوان يبدو لي قد يصلح لمسلسل صيفي..رديء ..قد نستمتع فيه على الأقل بمناظر الشاطئ ...كإطار لمغامرة عابرة لمدير بنك مع صديقته !...صديقة من المحتمل جدا أنها لا تميز بين مدير بنك فعلي..ومدير بنك صوري..من اختراع خيالها...وقد تمنيت لو كان بإمكاني تصديقها..لأثبت صحة المقولة التي تقول "إن نصف المديرين صغار...وحتى ولو بدوا كبارا..."

قالت : وما رأيك في أن تسهر معنا..غدا..مع المدير!..

تذكرت المقولة..وخفت أن أصبح مديرا !..ولو أن أجمل الدعوات وأرقها، بل وأصدقها...لا نتلقاها سوى من الذين قد كنا سببا بطريقة أو بأخرى في إدخالهم مستشفى الأمراض العصبية!..

قلت لها :مليون شكرا!...

عَرَّجْتُ

في طريقي على صديق عزيز..مسؤول في إحدى المؤسسات المالية، لا لسواد عينيه..طبعا، ولكن لحاجة في نفسي فرضتها علي وباستعجال، آخر تطورات الواقع المعاش ...فرحب بي الرجل...وكعادته، إذ سيان عنده أن أزوره لوجه الله أو فقط لتبادل الأنين كضحايا حرب قذرة...

وبدون مقدمات، ولا "إسقاط الطائرات" سألته :"كاين شي فلوس"؟..أعترف الآن أن الصيغة فجة بعض الشيء، ولكن ما العمل..وللأزمة أحكام؟ !وحتى يطمئن قلب الرجل..سارعت بدعم طلبي هذا بقولي "وهذا فقط إلى أن..؟" لكن الرجل لم يدعني أتمم..فقاطعني وبطريقة فجة..هو الآخر ..."وإلى متى..إلى أن تبيع الكرموس!؟"

الرجل ليس كعهدي به، فقد بدا لي في هذا الصباح، وكأنه خسر شيئا ثمينا، مقابل وعد زائف!..ولكن عهدي بالرجل لا يلعب !..إنه مباشر كالقطار المكوكي..السريع..من الرباط المدينة إلى البيضاء الميناء..دون لف ولا دوران..يمر بالمحطات الثانوية ولا يتوقف. عندما..هممت بتركه، أصر علي بالجلوس ..قال: "تفضل يا أستاذ!.." أنا أستاذ؟...ربما؟..!

عادة كان يقدم لي الشاي من كأسه الباردة أمامه نتناوله مناصفة ..أو يطلب لي القهوة وعلى حسابه طبعا !..لكنه في هذه المرة أخل تجاهي بشروط الضيافة التي يتحلى بها المغاربة..وبدلا من ذلك خصني بنظرة هي مزيج من الإشفاق والعتاب..مما جعلني أتأرجح فوق كرسي..وأحاول وبسرعة استعراض شريط علاقاتي به..وعلى الأقل منذ آخر لقاء لي به ..لاكتشاف مكامن العطب..

قال :"ليس وحدك".

وتنفست الصعداء..إن الرجل ناشط...وما نظرته تلك نحوي..إلا عطب تقني!..

رددت:

"لست وحدك حبيبها".

ربما كنت قبلك.

ربما جئت بعدك.

ولازالت تلقاني..

فصاح الرجل:

-أنا لا أغني..أنا أقصد أنك لست وحدك الذي تطلب فلوسا!...

- إخص..خاب ظني ..آه لو كان الرجل ذاق مرارة "ربما كنت قبلك .. ربما جئت بعدك.." فلما اضطر للخلط بين لغة الأرقام ولغة "رسالة من تحت الماء"...آه من فجاجة أصحاب المال!..

قال:

-لست وحدك الذي تطلب مالا..فكثيرون جاءوا قبلك ..وآخرون سيفدون بعدك..لكل منهم قصة..ذريعة..مكررة بعضها مقنع وبالأرقام..وبعضها مؤثر..ودون الاستعانة بالأرقام..فقد تكفي رؤيتهم بالعين المجردة..إنهم يا صديقي يشبهون الثيران في حلبة برتغالية لمصارعة الثيران!..

وبكل براءة سألته:

-ولماذا حلبة برتغالية..؟

لكأنه تابع تأبينه ..لأمثالي من بني الإنسان...

"...إنهم ينزفون دما..ويندفعون بجنون..لنطح " ماتدور" وهمي..وبينما شخير احتضارهم يضيع وسط الحلبة..تدوي المنصات العالية..بالتصفيقات السادية!..

وبكل براءة وتأثر سألته ثانية:

-أين قضيت العطلة..في اسبانيا..أم في البرتغال؟

قال:

-أمام شاشة التلفزة!..

قلت:

-إذت فأنت من الذين شملهم ذلك الاستطلاع "المتقون"...فهل سمعت بذلك الإشهار الذي يروج لأحد أصناف القهوة يأتي الصيف ويرحل..يأتي الخريف ويرحل..يأتي الشتاء ويرحل..

أما قهوة..فلا تتبدل.!...

-ولماذا لم تذكر الربيع؟

-لأنه...لأنه لازال بعيدا!...

3نونبر1988

شاطئكم حافظوا على نظافته!.."

هَذا ويسرح بصرك بعيدا على الشاطئ من كثبان الرمل التي سوتها الأمطار بمستوى سطح البحر..إلى أعالي البحار..حيث تلتحم السماء بالماء..فلا تبصر مخلوقا واحدا حيا يعنيه مضمون هذه اللوحة المثبتة عند دخل الشاطئ..إنه الخريف !..الفصل المتقلب المزاج كامرأة في عز سن اليأس، وكل الموجودات "الحسية" النائمة هنا، إنما هي من إبداع الصيف ..الفصل الأكثر مجونا في فصول السنة..وأنا..وإن كنت أعلم من أين أتيت..فلا أعلم لماذا أتيت!

الشاطئ يشبه الآن قرية سينمائية بعد انتهاء التصوير، وكل شيء في موضعه حيث تخلى عنه الصيف..الدوش..المخبزة..الدكاكين المغلقة وكأنها في إضراب غير محدود ..قارب الوقاية المدنية المقلوب على وجهه يحكي للرمل ما كابده خلال الصيف ..مركز الحراسة المدنية المهجور كموقع سقط بيد الأعداء..حتى الرمل..وحتى الأمواج..باستثناء الإنسان..هذا المخلوق الذي يخلق بتواجده الكثيف الحياة في الحي والجماد..في الصيف..كما في الخريف..كما في الفصول الأخرى..وبغيابه تسود الوحشة..وتمتلئ القلوب بالشجون..وتطفح بالأحزان حتى ليتصور الواحد في عمق عزلته أنه لأكبر حزين على وجه البسيطة..إنه الخريف..فعجبا لأناس اختاروا الخريف كي يغضبوا..ويطالبوا بالذي يجب أن يكون..وعجبا لآخرين اختاروا نفس الفصل كي يخلقوا في أرض الشتات دولة من رحم الوطن الأصلي..بعد نيف وأربعين سنة من الحمل ..نصفها وحم..ونصفها

الآخر وجع..ومخاض..فمتى يعود الفرع للأصل ..حتى يفجع الذي قال إن كل الخريف..خريف!..؟

الريح تعصف من البحر هوجاء ..وبعبث، قوة ضائعة تبحث عمن يقاومها، فلا تجد سوى جذوع الأشجار وأغصانها تعريها !...والبحر مجنون..ترتطم أمواجه بالصخر يريد تحريف الجغرافية وتغيير الحدود الموروثة..فلا يملك إلا أن يزيد..ويزيد..إنه المد..وأنا أتساءل لماذا أتيت..وأين ذهب كل أولئك الذين يعطي حضورهم لتيه الريح معنى..ولزبد المد هدفه!...؟

في مكان ما..في ثنايا الصخور التي تقطر ماءا، كانت تدوي ضحكة حادة..تنقطع..ثم تستأنف..تتناوب مع ارتطام الموج بالصخور..إنها ضحكة امرأة تحدث صوتا شبيها بصوت ارتطام الزجاج..ضحكة تحول هذا الفضاء السريالي..الموحش إلى بر أمان ..وتحاول أنت الأعزل من كل ما من شأنه أن يضحكك، أن تقترب من مصدر الفرح، لتطل على ذلك الوجه الضحوك الذي يتحدى الريح..رذاذ الموج..وبرودة الطقس..وغمام السماء ..واحتجاب الشمس..وهجرة الإنس .. والجن..ملائكة وشياطين..مخبرين ووعاظ..الذين لم يرتكبوا قط في حياتهم جريمة حب واحدة..ولا رأوا ولاسمعوا قط في حياتهم ضحكة امرأة نابعة من أحشائها..مخدورة بالنشوة في أبعد نقطة من أرض الله..القريبة من الله !...إلا أنك تخشى أن تحسب من أشباه تلك الرهوط، فتردع فضولك..وتسأل هل من الضروري أن نهاجر بعيدا بلذاتنا..كي نضحك ملأ كينانا..وهل من الضروري أن نتساءل دائما عمن ذاك الذي يضحك..ولماذا..ونحاول التعرف عليه!؟

هناك..من جهة البيوت الصيفية التي هجرنا المصطافون وكأنها ملوثة بالغبار الدري..هناك من جهة "الكازينو"، الذي سكتت أجواقه وانطفأت أضواؤه كأنه في حداد على موت الصيف..هناك جهة المقهى التي

تشتغل العام كله وحيث الآن كراسيها منصبة في اتجاه الريح..والبحر..تنتظر زبونا من رواد اللامعقول يحكي للآفاق البعيدة..أحلامه وأوهامه..هناك..!هناك ساحة مخصصة للعب الأطفال..بها أعمدة حديدية متقاطعة يركبها الأطفال في الصيف، حيث يكون آباؤهم ممددين على الرمل يسترقون النظر لعري أمهاتهم!..الأعمدة الآن صدأت، وبدأ الطلاء يتخلى عنها بعدما تخلى عنها الأطفال وهجروها إلى مقاعدهم الجديدة..والقديمة .أعبر الساحة فيخيل إلي أنني أعبر قفزا كانت به حضارة سادت ثم بادت...يجتاحني الشوق إلى الصيف..وتتراءى إلي أشعة الشمس تفضح المكان..وأبصر آدم وحواء يلعبان في الماء الأزرق كالأسماك البلهاء في حوض من زجاج..فأبتسم كقروي جبلي..حطه السيل من عل..لكنني سرعان ما أكتشف أنني وحيد...أمارس العزلة كعاشق يكلم طيف حبيبته التي لم تسعفه كل المناسبات كي يبوح لها بحبه..يصيغ الجمل على هواه..ويفتن بمحتواه الشاعري!..

آه من البحر..وفي الخريف..لكم هو مغر على الهروب إلى ظلام الذات!..

وأخيرا...وأخيرا...

فتلك ذواتكم فحافظوا على نظافتها!...

الخميس 24 نونبر1988

الْبَنون

زينة الدنيا...ربما، ومع تحفظات جمعية تنظيم الأسرة !... ولكن ليس في رمضان .والدليل هو التهميش الذي يلاقونه خلال ساعات النهار الطويلة والمضنية، والتخلص شبه التام من حضورهم ساعة الإفطار عندما تدق ساعة استقبال عودة الروح "باللي اعطى الله"!..

حظ الأطفال من رمضان حظان :حظ الفرحة بحلوله، وحظ الاكتواء "برمضانه" حيث يخضعون مثلهم في ذلك مثل البالغين لنظامه الخاص في التغذية والنوم والسهر والإمساك...لكون جل الآباء في هذا الشهر لا يهتمون سوى بـ "راسي يا راسي!"

ونحن صغار كنا نترقب بزوغ الهلال بحماس يفوق حماس المعنيين بالأمر، وكثيرا ما كنا نوفق إلى رؤيته...وقبل ضربة المدفع...المخيفة...ومن جهة الشرق !..وبمجرد ثبوت رؤية الهلال ينزل الثنائي "الطبال والنفار" إلى الأزقة يحمل البشرى إلى ضعاف النظر والسمع...فنركض وراءه نفسد عليه لعبة التبشير...وذلك بترديد شعار رمضاني فج :"رمضان أجي غدا...الحريرة ولابدا..." وبفعل صياحنا وهرجنا خلف الطبل والبوق "الروماني"، كان حتى الموتى يعلمون بحلول رمضان...فتنطلق في البيوت حركات عشوائية لوضع اللمسات الأخيرة على برنامج اليوم الأول من الصيام .كانت فرحتنا هذه، إنما هي فرحة ببدء عطلة ليلية مدتها شهر "بجبّانية" حريرة يوميا نختطفها عند الإفطار من مخالب الآباء...وبقايا سحور يكون بمثابة غذائنا اليومي وهو في الغالب عبارة عن خبز مدهون بالسمن وشاي بارد...أيام !كان

الواحد منا يتناول السمن عند ذهابه للمدرسة وعند عودته...وقد يحمله معه مذابا في الخبز...والدفاتر...والمحفظة...ومع ذلك كان الجوع يلاحقنا...نظام الكبار في التغذية كان يفرض علينا نوعيتها بالرغم من أننا كنا نهرب إلى الشارع عند آذان المغرب ..وننسى، عن عمد وسبق إصرار، عند السحور...فنظل بقية النها والجزء الأكبر من الليل نتقاطع في الأزقة ونتحارب كالميليشيات !..ترى هل تغيرت الصورة؟

بالنسبة للذين يستهلكهم "الروض"...ويغمرهم حنان الخدامة المدفوع الأجر...وتستهويهم لعب "تايوان" ،الرسوم المتحركة التي تبثها التلفزة والتي تعوضهم عن فقدان متعة ملاحقة الطبال والنفار...بالنسبة لهؤلاء قد تكون الصورة تغيرت كثيرا..وابتلوا "بصور" أخرى..إذا لم تَقِهم من بعض التهميش، فهي على الأقل تحميهم من الطرد عند الإفطار..ومعاناة عضات الجوع أثناء النهار!..

أما بالنسبة لأبناء "عبد الواحد"..فلا زالت "براكة لقمان"على حالها .. نصيبهم السمن..لمن استطاع إليه سبيلا..والخبز والشاي ..في النهار و عند الغروب..ليشكلوا جمهور الأجواق "العصرانية" ..الموكل إليها إطالة الليل ...بالخواء!..

22أبريل1989

هكَذا

مرت الليلة بالنسبة للبعض الذين لازال يسكنهم الحنين إلى أيام "لقديم لا تفرط فيه" ... أما بالنسبة للكثيرين فلم يهيؤوا لها دجاجا ولا كسكسا ...تناولوا الحريرة...وشاهدوا ليلة القدر في التلفزة العمومية...طبعا...إذ القناة »اللي هناك «أعفتهم...وأعفت نفسها من أي نقد يوجه إلى برامجها التب يقتصر بث أغلبيتها على فئة ...الجن... وذلك باستعمال شفرة "يس...زت...زت...يس..." المرموزة!...

أما وقد حلت ليلة القدر...فإن كل شدة تهون بعد ذلك فيما تبقى من الصوم، حتى ولو أصبحت ساعة صوم خلال الثلاثة أيام المتبقية من الشهر تساوي ما قيمته صيام يرم بأكمله .إنها تعتبر الوقفة الأخيرة من مسيرة كانت شاقة في جل مراحلها، لم يخفف من شدتها سوى تساقط الأمطار، غير المتوقع، الذي وإن رحب به من طرف الصائمين من جهة، فإنه كان وبالاً على الأجواق المبتدئة...حيث أفسدت عليها فرصة الانتقال إلى مرتبة أجواق السهرات العمومية التي أفسدت علينا بدورها مساء "السبت". وقفة أخيرة إذن وبعدها يسترد المزاج رشده ويبطل مفعول "الترمضينة" التي كانت سببا في الكثير من حالات "ترك عمل اليوم لما بعد رمضان!..." لتعود بعد ذلك يدا في يد، إلى التوقيت العادي في العمل بوتيرة أربع رحلات في اليوم مضحين...وبدون ندم بذلك الكم من الحلاوة الذي عودنا عليه ألسنتنا كل مساء... وذلك العدد الذي لا يحصى من "جبّانيات" الحريرة...أفيون الصائمين...وذلك التمديد الطويل لليالينا لتتبع حلقات "البشائر"...وذلك الكسل البوهيمي الذي أكسبنا خبرة لا تعوض في فن وأد الوقت.

- كانت ليلة لا تختلف عن بقية ليالي رمضان الأخرى عدا كونها مليئة بالمعاني الخاصة دينيا...وشعبيا...مما يجعل التعامل معها ذا أشكال متنوعة ...تنطلق بعد مغرب اليوم السادس والعشرين من رمضان...وتنتهي قرابة فجر اليوم الموالي.

- "الله على راحة" ...ومفهوم الراحة هنا يختلف كثيرا عن مفهوم فتح الله المغاري، إذ بعد هذه الليلة سينطلق العد التنازلي لاستقبال هلال شوال لنمتطي بعد بزوغه قطار الحياة...السريع...نحو حتفنا على حد تعبير السيد بوجمعة الذي رد علي "لْعمر هو اللي مشى...أولدي" عندما بشرته بقرب نهاية رمضان.

- كانت ليلة مزدحمة بالصور في الشوارع وفي البيوت طوابير من التقليديات...والعصريات ينتظرن دورهن عند حوانيت العطارة لاقتناء العجب العجاب مما يضر ولا ينفع ويجعل القلب "المتمرد" يعود الى "صوابه" ويصرخ في وجه التي يكرهها كرها... "أنت عيني..." من تأثير احتراق البخور وانتشار دخانها المشبع بروائح غير كيماوية تطارد الوهم من بيت لبيت...فتيات في عمر البراعم احتفلن بيومهن الأول يؤخذن إلى صالونات "كوافورات" يومي السبت والأحد، ليخرجن منها عرائس شهوة كتدريب أولي على لعبة "عش الزوجية"... وكجزاء على اجتيازهن لامتحان اليوم الأول... أطفال بطرابيش صغيرة وجلاليب...هي في الغالب من مخلفات يوم الختان، بدوا كرجال سلطة صغار في إحدى مناسبات وضع الحجر الأساسي لمشروع...ورقي...يتحركون بنزق ودهشة فرحين ومبهورين بهذا الذي زج بهم فيه.

- هكذا مرت الليلة بالنسبة للبعض الذين لازال يسكنهم الحنين الى أيام "القديم لا تفرط فيه".. أما بالنسبة للكثيرين فلم يهيؤوا لها دجاجا ولا كسكسا...تناولوا الحريرة...وشاهدوا ليلة القدر في التلفزة العمومية...طبعا...إذ القناة "اللي هناك" أعفتهم وأعفت نفسها من أي نقد يوجه إلى برامجها التي يقتصر بث أغلبيتها على فئة...الجن... وذلك باستعمال شفرة "يس..زت..زت..يس.." المرموزة..

- في تلك الليلة اختفى الطفل عن الأنظار...قيل إنه ذهب عند جده الى المسجد، لكن جده نائم يعاني من آلام في رأسه يدعي أنها بسبب عدم

تناول الحريرة في هذا المساء، لأن ربة البيت لم تهيئها كعادتها بحجة أنها "طلعت في الرأس"...وإذن أين يكون الطفل الآن؟... لا يهم... إنه لا شك في مكان ما في الدرب يركض كأمثاله...يتداخلون في بعضهم البعض كأسلاك شبكتنا الهاتفية. وبعد نسيان أمره عاد...سميناً بعض الشيء...وهو يردد "ليلة القدر خير من..." ولم يتمكن من إتمامها إذ بوغت بالسؤال الحتمي: "وأين كنت يا ولد...؟" قال: "في الجامع... لأن صديقي أخبرني أنه شاهد صحونا من الكسكس تدخل الجامع فدخلنا على إثرها..." فكاد الأب يصيح ولماذا لم تخبراني في الوقت المناسب...؟

- كانت الوالدة ليلة القدر تعد قصعتين من الكسكس : المعتبرة تخص بها الجامع...والفقيرة من اللحم لبقية الأسرة. وبعد نفض اليدين من القصعة، كانت تطلب مني قراءة ما تيسر من "القرآن العظيم" بمناسبة تلك الليلة العظيمة عند الله...رجاء في البداية، ثم إلحاحا، ثم تهديدا باستعمال أي شيء صلب تطاله يدها. في نهاية المطاف، وقبل ختام الحزب الأول تتثاءب وتتمايل كشجرة في مهب الريح ...قبل أن تميل نهائيا للنوم وعلى لسانها "تغميضة صغيرة".. وأعرف أن مفعول الحريرة قد أتى أكله...فأتركها نحو باحة الدار أرقب انفتاح السماء لأبثها نسخة من دفتر مطالبي للبت فيها عاجلا...وهكذا إلى أن تنتابني نوبات من العطس الشديد نتيجة تعرضي للبرد ورطوبة الليل وإشعاع النجوم البعيدة... فما رأي أعضاء لجنة جائزة "غونكور" في منحنا أنا وأمي جائزتها الثانية على إحيائنا وبطريقتنا الخاصة ليلة "سيدنا قدر..."

- صباح اليوم التاسع والعشرين ينسى كل الذي حدث الأمس...فيسترد الأطفال عفويتهم بعد خلعهم "ماكياج" الوهم عن وجوههم ليعيشوا عالمهم بدون "طرابيش ولا بلغة". وتختفي تلك الأشعة البخورية بفعل قوة المضادات التي يفرزها عنف الحياة اليومية الذي سيتعامل مع رغباتنا ونزواتنا وعقدنا بسلاح "ولا ينفع إلا الصح"...ويعود تاركو الصلاة الى عاداتهم القديمة بعدما أدوا آخر نمرة في نفاقهم السخيف...وبعد ذلك لا يبقى سوى توديع "سيدنا رمضان"...وترقب حلول الفاتح من شوال لفتح قائمة أخرى من الإحراجات الجَيْبية...تبدأ بزكاة الفطر...وتنتهي بكسوة لوليدات...وتلك شجون أخرى...

6ماي 1989

القنيطرة

مدينة الألف حرقة...وحسرة...أو ليس فيها قضى الرفاق زهـــــاء الخمسة آلاف يوم...وأيام...يحلمون بالشمس وبالجبال وبالبحـر وبالمرأة... وكأنها إحدى متاع الدنيا... النادر...وكأنها مكتشفات جديدة لم تجرب بعد.

قطار الثانية وتسع دقائق متعب، مزعج، بطيء ورديء كأشياء كثيرة غيره من حولنا...فهو إذ يتحرك لمغادرة محطة الرباط مستأنفا مهمته الجغرافية لربط نقطة نائية، يتحرك كعجوز تريد، وبعد طول مكوثها في مكانها، استبدال مكان بمكان آخر... فتقضي وقتا طويلا قبل أن يستوي عمودها الفقري...ووقتا آخر مماثلا قبل التأكد من وجهتها. قرقعة العربات تتضاعف وينتشر صداها بداخلها كانتشار معزوفة زنجية وسط الأدغال...واحتكاك العجلات على السكة حاد ويوقظ وجع الأضراس...ثم يختفي داخل النفق الممتد داخل قلب العاصمة كجرح قديم...العربات شاخت وإن كانت لازالت قادرة على الذهاب والإياب كشأن القرويات اللواتي تبقين قادرات على الإنجاب والعمل إلى أن تحد من قدرتهن هذه حادثة تافهة...وهي الآن تجر بعضها البعض كُرْها وكأنها تقوم بآخر رحلة لها قبل دخولها مأرب التحف التاريخية حيث ستتوقف بها زمنا قد يطول قبل أن تمتد الى إحداها مخيلة سينمائية تعيد إليها ولبعض الوقت مجدا سالفا...هذا إذا لم تفاجئها قبل ذلك أيدي سماسرة الخردة...التجهيزات فقدت الكثير من وجوه استعمالها. "البار" – هكذا كتب على باب المقصف – وهو يحتل عربة بأكملها يبدو مهجورا، لا "بارمان"...ولا زبناء...ولا مشروبات...باستثناء "الكونتوار" الشامخ في امتداده يحكي للكراسي المثبتة على أرضية العربة حكايات زمان...يوم

كان الواحد يسافر عبر نفس هذا القطار سفرين...سفر الجسد...وسفر الروح وفوق أحد تلك الكراسي كان المراقب يراجع أوراقه وحساباته قبل استئناف رحلاته المكوكية داخل هذا القطار العادي المتنقل لربط "الكادحين" بعضهم البعض... حتى المراحيض فجة...ولا "يجوز" استعمالها سواء كان القطار متوقفا أو متحركا...إنها شبيهة بالتي تشيد بجوار إحدى الورشات..

ويمضي...يجر خلفه احتكاك الحديد...بالحديد... واصطكاك أي شيء غير ثابت...ترفقه دقات العجلات المتباعدة القوية والرتيبة وكأنها تقدم لعمل إبداعي..."ضجيجي"...وطويل النفس...ثم يعبر قنطرة نهر أبي رقراق عند اتساعه المزيف...بفعل احتلال أمواج البحر لمصبه... فيتغير هدير القطار ليتحول الى صفير ضحل هو مزيج تفاعل الفراغ...بالإسمنت...بكتل المعدن...بالإنسان الضئيل...المعبأ في هذه الصناديق المعلقة...وينحرف يسارا فيبدو كرسم بياني مسترسل يتحرك على شاشة لا متناهية الأبعاد تحدها ظلال غابة المعمورة من جهة ما!

وبعد طول انتظار في محطة سلا، ينطلق مغالبا تردده ... فتزداد سرعته الي أن تبلغ حدود التهور ... وتبدو قاطرة الديزل... تتقدم بإرادة حديدية ... تجري كمجنونة في أزهي مراحل "وبعدي الطوفان"... تريد إنهاء امتداد القضبان الحديدية مندفعة وكأنها قوة غاشمة انفلتت من مركزها واندحرت من أعلي قمة نحو قعر هاوية سحيق... لكأنها هاربة من " الإدارة الكبيرة"...الرباط...لا تنوي التوقف أبدا... ولا العودة...وأن لا حدّ لاندفاعها..! وفي تلك اللحظات المشحونة بمئات الأصوات...وتصاعد حبات الغبار المشعة بفعل ضوء الشمس...ولهيب الشمس... والروائح المميزة للأشياء العادية والرخيصة والعزف الرتيب والمقلق للعجلات وأزيز الريح، وفي تلك اللحظات الكئيبة يغمرك الإحساس بمشاعر شتى...ومتناقضة...وتشعر بانقباض لربما ناتج عن توارد الكثير من الأفكار مما لا ضرورة له...داخل هذه المقصورة المسكونة بالغرباء..! أم تداعب ابنتها...ولا تمانع في أن يداعبها كل من آنس في نفسه مداعبة الأطفال...جندي متعب لا يدري الواحد أهو ذاهب أم قادم من معركة

ما..."أستاذ" غارق في ضفتي كتاب يقضي الرحلة دون أن يطوي صفحة واحدة من كتابه...وآخر وبعد احتجاجه على احتلال مقعده من طرف تلك الأم يحمل محفظة يد وعلبة حليب وهي كل متاعه...ويختفي داخل القطار...

هي ذي إذن القنيطرة...المسافرون الجدد يندفعون نحو قطارنا كاندفاع ركاب سفينة تغرق نحو مراكب النجاة... القنيطرة مدينة الألف حرفة...وحسرة...أو ليس فيها قضى الرفاء زهاء الخمسة آلاف يوم...وأيام...يحلمون بالشمس...وبالجبال وبالبحر وبالمرأة...وكأنها إحدى متاع الدنيا...النادر...وكأنها مكتشفات جديدة لم تجرب بعد..! ياللقهر ... ويا للقدرة على تشبتهم بحقوقهم في الشمس ... وفي الجبال...وفي البحر ...وفي المرأة...

ويمضي القطار غير آبه بمشاعرنا...بأحزاننا وشجوننا...ينساب على السكة الممتدة إلي ما لانهاية الامتداد...دقات العجلات هي الآن أسرع وتشكل خلفية موسيقية موزونة لصفير الريح التي تعوي بقوة ملايين الأفواه التي تنفخ في ملايين الأبواق في آن واحد...بإصرار وعنف حتى ليشعر الواحد أنه مقبل على حدث مأساوي رهيب...ولكأنه البطل والضحية في فيلم من أفلام الرعب الخانقة للأنفاس في لحظة من اللحظات الأمريكية اللاتينية حيث تتعاقب الثورة...والثورة المضادة على مسرح الحياة...الراقص رقصة التانجو...المعربد بالشراب الرخيص! وفجأة يتوقف القطار...يترنح وتتباعد العربات وكأنها تريد العودة من حيث أتت... وتتراجع، ويرتج نصفك العلوي و...يسود الصمت. صمت أكبر مجرد صمت. صمت مقلق. من حجم الصمت الذي يتلو الانهيار أو الزلزال أو اصطدام أية مصيبة...بشيء ما...وآنذاك يبدو الصمت فعلا إنسانيا... مكروها يستفز الأعصاب ...وتسأل الطفلة أمها بقلق "لماذا توقف القطار ياماما؟"

فتنتشر الابتسامة داخل المقصورة ويحاول الكل إعطاء تفسير لهذا.."العطب"..آه لو يظل عندنا حس الأطفال بالحركة!..

وعند الغروب نكتشف مدينة طنجة...أحلى غروب عند خاتمة أشقى رحلة...شاطئ تمارس فيه الأمواج على سرير الرمال التي في لون بشرة إنسانية أقدم لعبة في الحياة...مد ثم مد وجزر..! وفي عرض البحر تتراءى سفينة أضاءت كل مصابيحها تتأمل صورتها على سطح الماء بنرجسية مكشوفة...تدعوك لشد الرحال إلى الموانئ البعيدة لتكرار مغامرة "البحر وراءكم"...تطرد الفكرة من دماغك..وتدخل المحطة...محطة طنجة. عناق...ثم عناق...البحث عن الطاكسي..ثم لا شيء...وكأن المحطة والقطارات دخلت بعد وصولك في إضراب عام..!رائحة البحر تكتسح المكان، ويسيل لعابك لتناول السمك، فتعترض سبيلك وجوه تعسة...تتساكن في تفاصيلها ذرات المكر...والصدق...وتلمع عيونها ببريق الشوق...واللامبالاة:

- ليرة؟...بسيطة؟...فرنك!؟...

- مارلبورو...كارو ميريكان...؟

وتبتعد عن هذه العروض "الليبرالية" ليلقاك وجه يحاول إخفاء مرارته المكشوفة بابتسامة حزينة...يحرك باستمرار يده على فخذه وكأنه يقود أوركسترا...من الملائكة...يعزفون بحنان...وانفعال معزوفة" خيبة الأمل". في لحظة من لحظات وخز الجرح الموسيقي صاح الرجل "ليمت كل العالم...وتحيا السمفونية التاسعة..!" ولأنني أكره الموت، أضاف مشكورا "من أجل الفرح الإنساني"!..

هذا الوجه كمن أظن أنني أعرفه جيدا...فلما التقينا تأكدت أنني أراه لأول مرة...فشكرا لقطار الثانية وتسع!..

10 يونيو 1989

بَعْد

موعد كان اللقاء...شيء ما عميق وصميمي تهشم في دواخلها ...ما هو؟ كيف تغالبه؟ أسئلة تسارع لأخذ قصب سبق الاهتمام وتحتل مكان الأسئلة "الصحفية" التي "هيأتها" وأنا في طريقي لها...تهيبت في إلقاء أسئلتي مخافة أن أنكأ جرحا بدا لي أنها تجهد نفسها في الحصول عل بلسم له...فأخرجتني من ترددي إذ بادرت بعد دردشة قصيرة حول "الأحوال" أحوال الطقس والمعيشة إلى الحديث وباقتضاب عم ملفها (أو قضيتها) مع مكتب التسويق والتصدير.

في سنة 1961، وعن سن تناهز 19 ربيعا التحقت بالمكتب الشريف للمراقبة والتصدير كموظفة تابعة لوزارة التجارة والملاحة البحرية شأنها شأن كل موظفي المكتب آنذاك...وهو نفس الوضع الإداري الذي استمرت فيه بعد أن أصبح مكتب المراقبة مكتبا للتسويق والتصدير بعد قرار 9 يوليو 1965...لها شهادات مهنية متعددة تبين عن كفاءاتها بل وقد كانت من الموعودين بالحصول عل وسام الشغل سنة 1977 تقديرا لكفاءتها وتفانيها في العمل...

غير أنها فوجئت صبيحة 30 نوفمبر بقرار فصلها عن العمل، صحبة مئات زملائها من الموظفين والمستخدمين...لتصبح من عداد العاطلين بعد أكثر من ربع قرن من العمل عرف خلاله المكتب تطورا واتساعا كبيرين.

قرار الطرد كان صفارة إعلان عن بداية مرحلة أخرى من الحياة...مرحلة محنة التنقل المكوكي بين دواليب الإدارات والوزارات بأمل أن يتفهم المسؤولون الوضع ...لكن كل المحاولات كانت صيحة في صحراء قفر...

"أنا لا أفهم شيئا في السياسة وفي القرارات الكبرى، قالت بصوت هادئ فيه انكسار ...لكن لماذا يتم التغاضي عما أسديته للمكتب من خدمات وعن وضعي كموظفة لا يجوز إبعادها إلا بظهير ...ولم لم يتم إلحاقي

كموظفة بمكتب المراقبة ...وألقي بي إلى الشارع لأواجه مصيري وحيدة وفي عنقي مسؤولية خمسة أطفال تتراوح أعمارهم بين 20 و 10 سنوات استشهد أبوهم وهو يدافع عن حوزة الوطن بآسا يوم 20 يونيو 1980 (من القوات المساعدة...رقمه 817)... لو كان سوق العمل مزدهرا لهان الأمر...فكل الأبواب موصدة أمام مساعي لإيجاد عمل رغم تجربتي ذات العمر المديد ورغم شهاداتي المتنوعة...فالوظيفة العمومية لا تقبل من تجاوز الثلاثين سنة وأغلب الشركات والمؤسسات الخاصة تحرم قوانينها تشغيل من تجاوز الأربعين...وما يحز في نفسي أكثر أن أبنائي، أبناء الشهيد، رغم نباهتهم واجتهادهم سيواجهون مصيرا قاتما. فابنتي الكبرى ستحصل على الإجازة في الفيزياء السنة المقبلة، والثانية ستتخرج من إحدى مدارس التكوين المهني...والآخرون لازالوا يتابعون دراستهم بالثانوي والإعدادي والابتدائي، فكيف سيكون مصيرهم وكيف سنستطيع مغالبة ما يتطلبه العيش الكريم وميدان التشغيل يعرف أزمة لا يلوح في الأفق مخرج لها، ومجال بطالة الشباب "يزدهر" مزهوا...وتكاليف العيش والدراسة لاتني ترتفع بدون توقف...وما محل أجرة 12 شهرا كتعويض عن الطرد من الإعراب، بعد 27 سنة من العمل؟!

"لم أفهم ما حدث صبيحة 30 نوفمبر المشؤومة، هل أفلس المكتب؟ لا أظن...وإلا ما معنى العلاوات التي عرفتها أجور من بقي من المستخدمين؟ يستمر صوت أرملة الشهيد الهادئ والمنكسر، وحتي إذا كان الأمر كذللك، فما ذنبي وما ذنب من مسهم قرار الطرد، هل شاركت يوما في القرار، أو التخطيط أو التسيير...؟"

وتواصل الحديث ينتقل من تفاصيل "الملف" ليبدي أن ما تهشم في الدواخل كان طموحا...طموح في الوفاء لروح الشهيد عبر توفير أسباب العيش الكريم واللائق لمن تركهم وراءه في سبيل نصرة الوطن...طموح لا زال في القلب الكثير منه رغم ما حدث و يغذيه أمل بدا في حديثها يطوقه أكثر من سؤال...أمل أن تهتم العدالة بضحايا قرار، خلف عواقب ومآسي اجتماعية يصعب علي المنطق السليم أن يتغاضى عنها...فترجع بذلك إلى النفوس بعض الثقة في المستقبل ... 17يونيو1989

من مطبخ إلى مختبر تصوير؟!

في البدايات الأولي شكل مقر الجريدة نقطة تجمع الطلائع الأولى لمناضلي المنظمة. فقد كان مثابة الارض المحررة التي انتزعت من مخالب القمع الأسود يلتقي علي أرضيته العديد من المناضلين لتبادل همومهم السياسية ولتجريب آليات مشروعهم...المستقبلي.

وكان أيامها عاديا أن يزدحم المقر بالعديد من الرفاق لإسناد هذا المولود الجديد الذي يخطو خطواته الأولي في ذلك الوسط الملغوم..والمحفوف بالمخاطر والمفاجآت. كان الجميع في تلك المرحلة يمارس دور الصحافة...والقراء معا. ومن وسط هذا العدد الهائل من"الصحافيين والقراء"، انطلقت الجريدة ...تتألق أحيانا...وتخبو مرات...ولكنها لم تتوقف أبدا...حتى عندما حجزوا العدد 312... حجزوا الورق ولم يحجزوا القضية...قضية المعتقلين السياسيين!!..

لقد شهد مختبر التصوير الفوتوغرافي في الجريدة جل هذه اللقاءات الرفاقية التي كانت تتم داخل الجريدة وذلك بحكم موقعه الجغرافي...الممتاز بحيث كان يضمن عدم تأثير الدردشات الصاخبة على السير العادي للجريدة.

مختبر تصوير...!؟

يحق للمرء أن يتساءل، وباستغراب مشروع، كيف أمكن لجريدة رأي ذات إمكانيات معروفة أن تتجهز ومنذ البداية بمختبر تصوير وهي لا تتوفر بعد على الحد الأدنى من الضروريات..! في الحقيقة لقد أحدث هذا المختبر أو على الأصح نواته الأولى صدفة...أو لربما هدية من هندسة المقر نفسه وليس نتيجة نية مبيتة... أو ضمن خطة تجهيزية محددة. لقد كان المقر يتوفر علي مطبخ... وهو علي شكل غرفة منزوية مستطيلة الشكل كالتابوت

ويمكن توفير الظلام بها وكانت مجهزة بالماء...وأيضا بمسخن غازي ..ولكنه عاطل ..في البداية استغل هذا المكان لجمع الصور...وكل الأشياء الزائدة عن الاستعمال في المقر...أي كان جوطية المقر...وذات يوم قررت احدى الرفيقات التخلص من جهاز تكبير الصور بحكم أن مهامها النضالية تمنعها من إضاعة الوقت باللعب بالضوء والمواد الكيماوية...فأهدت جهازها ذلك للجريدة، وهو من صنع إيطالي نادر سوف نمصي مالا يقل عن ثماني سنوات نبحث عن عدسة له...دون أن نوقف. وأمام هذا "الثقل" لم يبق مفر من تحويل المطبخ الى مختبر للتصوير، وسوف تمر أسابيع وأخرى قبل أن يتمكن مصور الجريدة وبمساعدة تقنية أجنبية من تشغيل ذلك الجهاز وإخراج صور أردأ بكثير من تلك الصور التي توصل الى إخراجها *NIEPCE* حوالي 1822... بعد الميلاد طبعا. وكان الرفاق...سامحهم الله يعتبرون ذلك إنجازا كبيرا سوف يساهم ولا شك في تطوير الجريدة ويزيد من انتشارها لما للصورة من تأثير كبير على القراء...وأمام هذا التشجيع، المبالغ فيه، اندفع الرفيق المصور إلي بذل أقصى الجهود، لا لتطوير عمله والرفع من جودته، ولكن، وهذه هي المفارقة، لتعلم المبادئ الأولى في فن التصوير في شقيه التقاط الصورة وإخراجها في المختبر. وهكذا انكب، دون ملل، على قراءة العديد من الكتيبات والمجلات المختصة في فن التصوير، ومع ذلك ظل عيب الجريدة هو الصور. إذ غالبا ما كانت تجيء على شكل بقع سوداء...وأحيانا مجرد ظلال باهتة لشخوص مشوهة!

كان مقر الجريدة دائما عرضة لتعديل شكله وذلك بهدف توسيعه عن طريق تضييق المكاتب الموجودة كي تتمكن الجريدة من التوفر علي مكاتب إضافية أخرى تتسع لحاجياتها الجديدة...وهذا جميل طبعا، ولكن الغريب في الأمر هو تغييب مختبر التصوير من أي مشروع "إصلاح" شهدته الجريدة حيزا وتجهيزا..! ولا يدري الواحد من أين جاء هذا التهميش الذي ظل يلاحق جانب التصوير في الجريدة...ففي إحدي الميزانيات مثلا خصص لباب التصوير مبلغ ألف درهم برسم تلك السنة، وبعد نقاش رفاقي مسؤول، أضيفت خمس مائة درهم...وفي نهاية تلك السنة نفسها

سنكتشف جميعا، وبارتياح أن الصور لم تكلفنا سوى أكثر بقليل من نصف المبلغ الذي خصص لها. فمن أين جاء هذا الاحتراز، إن لم نقل العداوة نحو التصوير؟ ربما يرجع لمكانة الصور التي ـ حسب البعض ـ يجب أن تكون ذيلية للمقال...الطويل...الذي يبدأه صاحبه بنشر صورته الشخصية...!أما المثل الصيني القائل بأن "الصورة الجيدة لا تحتاج إلى تعليق" فلا يبدو أن الممارسة الصحفية الوطنية في إجمالها قد استوعبته وتمثلته بما يكفي. وهذا موضوع يحتاج، ضمن ما يحتاج، الى كثير من القول.

18نونبر 1989

هذا الكتاب

"كما تلامس رؤوس اليتامى"...

صور نـافذة ومعبرة عـن مجتمعنا المغربي خلال سنوات الرصاص...صور من الشوارع والمقاهـي والحانات والأسواق والحمامات والأزقة المتربة والبراريك...

صور لمتقاعدين ومتسولين ومخبرين وسائقي طاكسيات وبائعات هوى وأولاد يخرجون من بيوتهم ولا يعودون، وإذا عـادوا فمحتضرين ليموتوا فقراء كما ذهبوا.

وصور بوابين وفلاحين وعمال وموظفين صغار ومناضلين ومعتقلين ومقاومين يكافحون من أجل بطاقة "مقاوم" ولا ينالونها مع الجهد إلا بعد التقاعد وماذا تفيد؟

صور لنذل ومجانين وأنواليين يبدون في صمودهم وإصرارهم، رغم الحاضر السيء والأفق الأسود كالمجانين.

صور في شكل وسائل أو خواطر ونفثات صدر يمتزج فيها الحب بالسخرية والشكوى بالظرف والمرح الأسود المضحك المبكي.

والفقيد، الأستاذ محمد البرنـي، الفنـان، يرسم بقلمه هذه الصور الحية بخفة وسرعة. ويلامس

الفقيد محمد البرنـي

رؤوسنا نحن مواطنيه كما تلامس رؤوس اليتامى. نحس مع اللمسة بحنان اليد ونبـض القلب الذي يحركها، فتتماسك ونصمد، ننسى أننا نسكن وطنا يجن فيه المعلمون ويجوع فيه الصحفيون وتجف فيـه الدمـوع ويجمد مـاء الركب... وينتحر فيه الأطفال...

نتملى فقد جمال بلادنـا الطبيعي، فنقبض بقوة، وبـأظافرنـا وأسناننـا، علـى الشعـاع الخافت الـذي يبدو هناك ...في أخر النفق.

أحمد بوزفور

الثمن
20
درهما